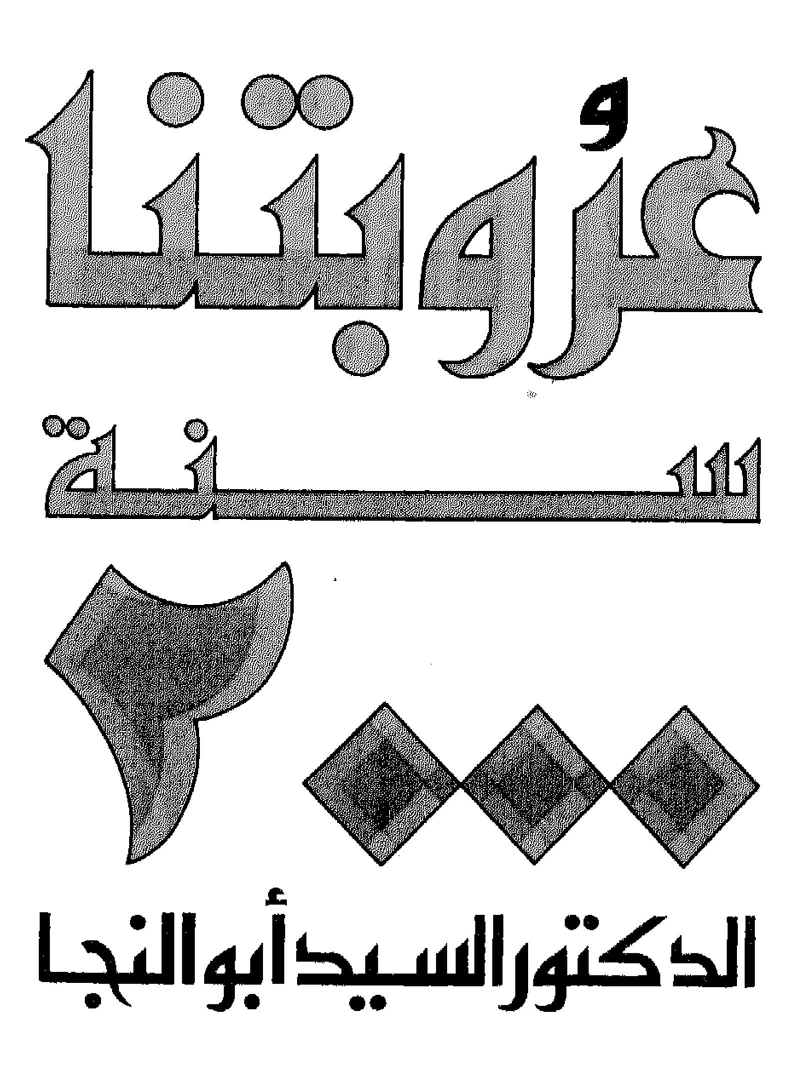
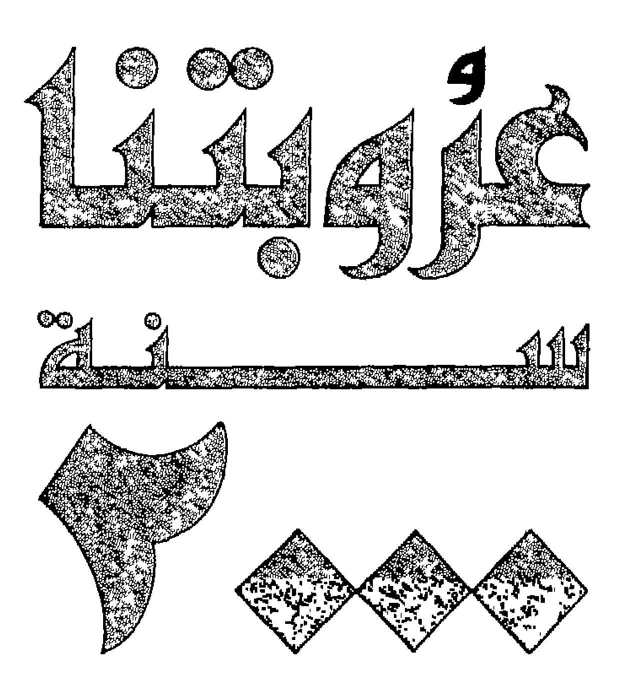


دار الشروق


عروبتنا
سنة
٢٠٠٠



الدكتور السيد أبو النجا

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بيروت: ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥٠١١ - برقيا: داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس 93091 SHROK UN

المحتويات

تقـــديــم

مَـاذا فعَـلت بـنَفسي ؟

بعد أن فرغت من هذا الكتاب بدأت أكتب هذه المقدمة ، وهنا خطر لي هذا السؤال : ماذا فعلت بنفسي ؟ ان القراء سيظنون أنني مارست حياتي كما يمارسها الأبالسة ، وأنا أؤكد لهم جميعاً أنني أعطيت تلاميذي الكثيرين خير ما عندي من تمسك بعروبتي ، وأعطيت زملائي الكثيرين خير ما عندي من وفاء وأعطيت آلاف عملائي خير ما عندي من خدمة . ولكن العروبة والوفاء والخدمة كانت كلها تلبس رداء المصلحة العامة ، ولم تكن من وحي النظريات .

والعرب – في مجموعهم – يؤيدون في أعماقهم هذا الاتجاه العملي ، فهم حين يسخرون من شخص يقولون إنه «مِدَبّ» وحين يثنون على آخر يقولون إنه «عفريت» يريدون بذلك أن الأول لا يعرف ما يريد ، وأن الثاني ينطلق إلى الهدف . فهل أنا في هذا الكتاب من النوع الأول أو من النوع الثاني ؟

نحن عرب ، هذه حضارتنا وقدرنا .. ولكن الحضارة العربية

ليس من خصائصها أن تكون متخلفة : أن ترفع صوتها حين تتحدث أو تضحك .. أن تحرك يديها في كل اتجاه كلما أدارت لسانها .. أن تتكلم واللقمة في فمها .. أن تغرق نفسها في الخزعبلات والغيبيات بدل أن تخلّص الزرع من الآفات وأن تحافظ على الصحة بالعلاج .

هذه جهالة وليست عروبة . فإذا أكرمنا الضيف بتكويم الطعام فوق المائدة ورفضنا الجلوس إليها معه ، ودرنا نخدمه واقفين حتى ينتهي من طعامه فهذه حفاوة بغريزة الجوع ، وتجاهل لما أدخله التسامي عليها من زهور وخلفية موسيقية . وإذا ضحينا في العيد وأجهزنا على الضحية دون أن نوزع منها شيئاً على الفقراء والمساكين فهذه أنانية تدعي الإسلام ولا تنصاع له .

وإذا أبقينا على التأليف في الأدب دون العلم ، وعلى تكريم الشعراء والكتاب مع إهمال التكنولوجيا بحجة أنها وافدة من الغرب دخيلة على التراث ، فهذه جاهلية ليست من متطلبات العروبة ، وإنما هي تحجر في السلوك وإيثار للتسلية على البحث الجاد .

وإذا ركبنا السيارة إلى اجتماع عربي فإذا السيارة تقودنا إلى ملهى ليلي ، أو ذهبنا إلى لندن فلم تعجبنا المعاهد والمتاحف ودور الخير وإنما جذبتنا معاهد التجميل ونوادي القمار ، فهذا انحراف شخصي واستمتاع رخيص ، وليس تحدثاً بنعمة الله كما يحلو للعربي أن يقول .

وإذا أقمنا عُرساً فأطلقنا الرصاص في الجو فأصاب أحد المدعوين ، وأسرفنا في نحر الذبائح واستئجار الراقصات والمغنيات فهذا ليس كرماً وإنما هو تفاخر بالمال والجاه .

بعيداً عن السياسة

البعد عن السياسة في الفكر بعدٌ عن التفكير في كل شيء . فالاقتصاد سياسة ، والتعليم سياسة ، وإدارة الأعمال سياسة وهكذا .. ولكن السياسة بمعناها المعروف هي الانحياز لوطن ضد آخر ، أو لحزب بالذات ، أو لنظام معين كالشيوعية ، أو الاشتراكية أو الرأسمالية .

السياسة بمعناها هذا هي التي قال عنها الشيخ محمد عبده «أنا أكره السياسة ، وأكره ساس ويسوس» ولعلي أضيف إلى ما قال «بل أكره السوس» . هذه السياسة هي التي لا ذكر لها في هذا الكتاب ، فقد حاولت أن أسمو فيه على الخلافات التي تنخر كيان العالم العربي في الوقت الحاضر ، وأن أتحدث عن مستقبل العروبة ككل في سنة ٢٠٠٠ . أتحدث عن ثقافتها وحضارتها ، عن مفهومها الديني وحياتها الاجتماعية وإدارة الأعمال في مؤسساتها ...

إن هذا الكتاب كلمات إلى العقل لا إلى العاطفة . وهو خلاصات مركزة تنتزع نداءها من الواقع الذي نعيشه ، لا من الآمال التي نحلم بها . إنه يشخص الأثقال التي في أقدامنا ونسميها بالخطأ تقاليد ، ويستحلف العروبة بمقدساتها أن تتخلص من هذه الأثقال قبل نهاية القرن الحالي .

أكتبه مع التذرع بدرجة عالية من التجرد أتحرر فيها من مصريتي إلى عروبتي ، يساعدني في ذلك سني وحيدتي ، فلقد تجاوزت السبعين فلم يعد لي مطمع إلا التبشير بما أعتقد أنه صالح ومفيد حتى أترك حياتي إلى ذكراي ، ولم يسبق لي أن قيدت فكري طول عمري ،

فقد بلغ بي التسامح الديني حداً جعل بعض المتزمتين يشكّون في مدى تمسكي بإسلامي ، ولم أنضم يوماً إلى حزب سياسي أو لجنة سياسية ، بل لم أتحيز في كرة القدم للنادي الأهلي أو نادي الزمالك !

لقد جبت أنحاء مصر والعالم العربي بحكم أعمالي السابقة ، واختلطت بناسها الطيبين على اختلاف مستوياتهم ، فأحببت طبيعتهم وإن وددت لو كانوا أكثر واقعية وتفتحاً . ومن منطلق هذا الحب أنقدهم في هذا الكتاب وأطرح آرائي للمناقشة .

كيف نختلف ؟

يؤسفني أن العرب لا يعرفون كيف يختلفون ، والاختلاف هو المقياس الذي يكشف عن ثقافة الأفراد وحضارة الشعوب . إن الاختلاف عند العرب خصومة شخصية وممارسة عصبية . ولذلك يعبرون عنه بالصراخ والشتائم والاتهامات ، بينما تعبر عنه دول الغرب بمقابلة الحجة بالحجة ، وبالإنصات قبل الإرسال ، لأنه عندهم عمل عقلاني هدفه التعاون في الوصول إلى الممكن بعداً عن التنابذ .

وكما يبالغ العرب في الخصومة عند الاختلاف ، يبالغون في إبداء العواطف عند الاتفاق ، فيتبادلون الأحضان ويقبلون اللحى ، ثم ينحرون الذبائح ويملأون البطون .

ومن الغريب أن العرب يسرفون في القتل لا في القتال ، حتى انتهى بهم الأمر أخيراً إلى الاعتداء على قمة مقدساتهم وهو الحرم الشريف مع قتل الحجاج والمصلين . إنهم حين يتناقشون فبالشتائم ، وإذا تحاربوا فبالاغتيال وإشعال الحرائق ، وكأنما الشاعر العربي القديم

كان يعنيهم حين قال «أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة» ذلك والغربيون على العكس من ذلك : يفترضون أن الآراء لا تجيئ بالضرورة مطابقة للحق ، فهي تنبثق من العقول ، والعقول مغلوطة في بعض نواحيها ، كما أن الآراء تنبع من مكونات كثيرة تلونها بلونها ، فهي قابلة للفحص والتقليب . وكثيراً ما يكون الحق فيها وسطاً بين باطلين حتى أن ميرابو قال قولته المشهورة «أنا مختلف في الرأي معك ، ولكنني مستعد أن أبذل حياتي دفاعاً عن حقك في إبداء رأيك» .

اختلفتْ بمقدار حقها

أذكر حين أتممت دراستي في لندن وأعددت نفسي للعودة للوطن أنني أخطرت بذلك صاحبة الشقة المفروشة التي كنت أسكنها مع زوجتي وطفلي . وجاءت لتعاينها فوجدت ورق الحائط ممزقاً في جزء صغير منه ، وإصلاحه متعذر لعدم وجود اللون في السوق ، فطلبت إبدال الورق كله ونشأ بسبب ذلك خلاف بيني وبينها : هل ما حدث استهلاك يغطيه الايجار ، أو هو إتلاف يقتضي التعويض ؟

وفي إحدى الجلسات كان عندي ضيف صديق فتدخل في الحديث هازئاً من طلب التعويض فقالت له صاحبة البيت «أرجوك يا سيدي ألا تتدخل في أمر مقصور على مؤجر ومستأجر» فضايقني هذا اللوم وقلت لها «ما دمت تهينين ضيفي فلا تفاهم بيننا» .

وأدركتْ أن هذا الأمر العارض قد يفسد المفاوضات فقدمت اعتذارها على الفور للضيف ، ثم التفتت إليّ قائلة «أما وقد قدمت اعتذاري فقد انتهت المسألة ولنعد إلى موضوعنا الأصيل» .

ولما لم نصل إلى حل قالت في صوت خفيض «معذرة فإنني مضطرة الآن لوضع الأمر في يد المحامي» واستأذنت في الانصراف فودعتها وكنت خارجاً أنا الآخر لكليتي .

وعندما ركبت السيدة سيارتها رأتني أمشي لآخذ المترو فدعتني للركوب معها ، وظننت في هذا معنى الترضية والعدول عن التهديد ، ولكنني تسلمت بعد يومين إنذاراً أحمر بالحجز على أمتعتي مع تحذيري من مغادرة الشقة قبل نظر القضية بعد ثلاثة أيام .

ولم أجد بداً من أن أبحث عن لون الورق في كل مكان حتى وجدته عند تاجر للمخلفات فاشتريت منه متراً بثلاثة شلنات وعدت به لصاحبة البيت ، قالت «شكراً سألغي الآن إجراءات التقاضي» .

وبعد يومين ذهبت إلى محطة فيكتوريا لأستقل القطار مع أسرتي إلى ميناء دوفر فوجدت على رصيف المحطة سيدة وباقة ورد . إنها صاحبة البيت تقوم بواجب الوداع .

هكذا اختلفت معي بمقدار ما رأته من حقها ، فلما حصلت عليه نسيت ما كان مني ولم تنس واجبها في توديعي ، وهذا هو الحزم الذي يحدد الهدف وينطلق إليه من موطن القوة . أما الضعف فهو تنفيس عن الأعصاب المتعبة . هو لطم على الخدود ودبدبة بالأرجل . هو كمن يتمرغ في تراب المقبرة من النساء لابداء حزنها على فقيدها .

هذه هي الموضوعية

إن الفرق بين هذه السيدة الإنجليزية وبين نسائنا كالفرق بين تشرشل وهو يقود الحرب العالمية الثانية وبين رؤساء العرب وحكامهم وهم

يندبون حظهم في الميكرفون . لقد حارب تشرشل هتلر وموسوليني في الأرض والبحر والسماء ، ووضع يده في يد الشيطان (الاتحاد السوفيتي) لكي ينتصر . وقدرت له بريطانيا صنيعه فرفعته فوق الأعناق وأقامت له تمثالاً ، ولكنها أنزلته من رياسة الوزراء بعد أن وضعت الحرب أوزارها لأنه لم يعد يصلح للسلام ، واستمرت في تكريمه حتى مات .

ولعلنا نذكر أن اللورد ألنبي حين أنذر سعد زغلول رئيس الوزراء بسحب الجيش المصري من السودان بعد مقتل السردار في ظرف ٤٨ ساعة لم ينس أن يضع قبل إمضائه «خادمكم المطيع» ونذكر أن مستر ايدن رئيس وزراء بريطانيا حين رأى جمال عبد الناصر في الجمعية العمومية لهيئة الأمم بنيويورك بادره بالتحية والسلام رغم ما كان بينهما من جفوة بسبب الاعتداء على بورسعيد بعد تأميم قناة السويس .

ومن قبل ذلك بسنوات طويلة أصدر نابليون أمره لأحد ضباطه أثناء المعركة بألا يعبر بجنوده قنطرة حددها ، ولكن الضابط رأى بعد قليل أن الأعداء يقتربون منه وأنهم سيبيدون فرقته بكاملها ، فعبر القنطرة ثم حطمها ، ولما علم نابليون بذلك أمر بإطلاق الرصاص على الضابط لأنه خالف أمره ، ثم علق على صدره وساماً لأنه أنقذ فرقته من موت محقق .

هذه الموضوعية في التفكير هي التي يحتاج إلى بعضها حكامنا العرب ، ولذلك تجيء تصرفاتهم انفعالية من وحي الساعة فتتحسن العلاقات فجأة بين دولتين عربيتين إلى ما يشبه الوحدة ، ثم تنقلب

فجأة إلى ما يشبه الحرب . ويقف زعيم عربي فيثني على زميل له ، ثم يقول فيه بعد قليل ما قال مالك في الخمر .

ذلك وكارتر – وقد كان على رأس أقوى دولة في العالم – يواجه أزمة إيران وغزو أفغانستان بمنطق الجمع والطرح دون أن تصدر عنه كلمة شاردة في حق الخميني أو بريجنيف . ودول الغرب في أوروبا يحسبون ما لهم من ديون على إيران ، وما قد ينقصهم من نفط قبل أن يحددوا موقفهم منها أو من العراق

إنني لا أكتب هذه الكلمة لحساب مصر أو ضد دول الرفض ، ولكنني أدعو زعماء العرب وأصحاب الصحف ومحطات الإذاعة جميعاً إلى تخليص مقالاتهم وخطبهم من الشتائم . أدعوهم إلى أن يقولوا « هذا خطأ بدل أن يقولوا « أنت مضلل » . أدعوهم إلى أن يعملوا عقولهم وأن يخففوا عن حناجرهم . أدعوهم أن يبحثوا عن المعاني التي تعالج الموضوع بدل أن يملأوا الصفحات بالسباب الذي لا يحل مشكلة بل يثير مشكلات . أدعوهم إلى استخدام الأرقام والنسب المئوية بدل الجناس والطباق والسجع والشعر .

لقد أصبح رجال السياسة في الغرب رجال أعمال ، فهم يتحدثون في الاقتصاد والاجتماع والطاقة والتعريفة الجمركية ، والاستيراد والتصدير وسعر العملة وتبادل المصالح . أما السياسيون العرب فهم لا يزالون غارقين في المبادئ النظرية التي لا تقبل التطبيق ، وهم لا يقبلون التجزئة في الحلول فإما قبول مطلق وإما رفض مطلق . إذا اختلفوا على أربع نقاط فهم لا يقبلون الاتفاق على النقطتين الأولى والثالثة إذا تعذر الاتفاق على الثانية والرابعة . وهم يسمون التسوية نفاقاً ،

ويعتبرون التفاهم ضعفاً . وكل اجتماع لا بد أن ينتهي ببيان بليغ ، وكل وليمة لا بد أن تبدأ بخطبة ممتعة أو بقصيدة عصماء .

إن العرب يصنعون حياتهم من التفاصح لا من الأعمال ، وإذا عملوا فهم يؤثرون الأعمال المسرحية التي تستجدي التصفيق ، ولا يحبون المحاولات المحسوبة التي تؤدي إلى نتائج محسوسة .

إنهم لا يزالون يعيشون في عصر الشعر ، فإذا رضوا عن حاكم قالوا له خاضعين

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

وإذا غضبوا على أحد قالوا له ساخرين :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وأنا أرجو من اليوم إلى سنة ٢٠٠٠ أن نتعلم أن نقول للأول «أحسنت يا سيدي فشكراً لك» وأن نقول للثاني «أستأذنك يا سيدي في أن أختلف معك» وذلك عملاً بقول الرسول الكريم «أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وابغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» .

السيد أبو النجا

الفصل الأول

عروبتنا بين الجنة والمسالك الخشنة

حضارتنا غير ثقافتنا التي يجب أن تكون متحررة فالأولى إسلامية عربية . ولست بهذا القول أتجاهل إخواننا الأقباط في مصر ، أو الموارنة والأرمن في لبنان ، أو الأكراد والإيرانيين في العراق ... لأنني لا أقصد المعنى الديني أو الطائفي ، وإنما أعني الوصف الحضاري وهو البيئة التي نشأت بعد ظهور الإسلام والعروبة ، كمصدر تاريخي لا كمصدر ديني . إن الواقع هو الواقع ، فلا يمكن أن يكون طائفياً . وقد قال مكرم عبيد «إذا كانت المسيحية ديني فإن الإسلام وطني» وقد كان في قوله صادقاً لا مجاملاً . ووصف فيما بعد بأنه ابن سعد كما كان يهتف المتظاهرون ، وخطب القساوسة في الأزهر كما خطب علماء الأزهر في الكنائس ، واختلط الدم المسيحي بالدم الإسلامي من رصاص الإنجليز ، فلم يستطع أحد أن يميز بين الإثنين .

ومن وحي ما تقدم أقول إن المسلمين يقولون إذا بليتم فاستتروا على حين يسعى المسيحيون إلى الكاهن ليعترفوا بين يديه حين يذنبون عسى

أن يكون في هذا الاعتراف مصارحة للنفس ، وتنفيس عن الإثم ، ووعد بالتوبة .

ولست أدري إن كان كبت الذنب أحسن من البوح به إلا إذا كان البوح للتباهي والمفاخرة . أما إذا كان للندم فهو في رأيي اعتذار عما كان ، واعتراف بما يجب أن يكون .

إن غريزة الجنس المكبوتة تعبر عن نفسها بالإعتداء ، أما الغريزة التي تعلن عن نفسها بالزواج فهي تمارس حقها في شرعية ، وتؤدي واجبها في التزام . وغريزة حب التملك إذا لم تعبر عن نفسها بعمل مثمر فإنها تبقى مكبوتة لا تجد ما تشبع به نفسها إلا أن تعتدي على المجتمع في شكل سرقة أو احتيال .

وغريزة حب القتال إذا لم تعبر عن نفسها بمحاربة الميكروب وبالتفرج على مصارعة الثيران وتقاتل الديوك وتنافس الرياضيين وتناظر المختلفين في الرأي ، فإنها تخرج أبخرتها بقتل الناس وإشعال المعارك وإحداث الهرج وتدبير المظاهرات .

ولعل تفادي الكبت هو الذي يدعو إلى انتشار نوادي العراة واستباحة الصور العارية في المجلات والأفلام ، فإن الناس في سعي دائم إلى تجريد المرأة من أهم أسلحتها وهو التجمّل ، وتجريد الرجل من أهم دوافعه وهو التخيل ، ولعل تفادي الكبت هو الذي دعا إلى انتشار «الهبية» بين الشباب فقد برموا بما فرضته المدنية عليهم من تحرز وتحضر ، فعادوا سيرتهم الأولى إلى أحضان الطبيعة .

هل على المسلمين إذن ألا يصارحوا أنفسهم بما فعلوا فيعيشوا في صراع داخلي دائم ؟

إن البشرية لا غنى لها عن الفضائل لتسمو بالإنسان على الحيوان . ولكن كبت الذنوب يكف المسلمين عن مصارحة الناس بما اقترفوا من انحراف يؤثر في اللاشعور ، ويؤصله في السلوك بمرور الوقت .

إنني أؤيد المسيحيين في الاعتراف أمام الكهنة ، وأدعو المسلمين إلى الاعتراف أمام علماء الدين كما يعترفون الآن أمام رجال الطرق الصوفية ، وكما يعترف الشيعيون الآن أمام ضريح الحسين في العراق . وأنا أؤيد كتابة الذكريات الصادقة الصريحة التي يعرض الكاتب فيها أخطاءه على الرأي العام . فإن في نشرها ما يلقي الضوء عليها ويبصر الناس بآثارها ، كما أن النشر وعد من صاحب الذنب بعدم العودة إليه .

الإيمان سلوك

إن الإيمان سلوك وليس عملية حسابية تخرج حاصلها آخر الأمر فالمسلم يؤمن بأن دينه هو الصحيح لأنه ولد مسلماً ، كما أن المسيحي يؤمن بأن الأديان الأخرى باطلة لأنه ولد مسيحياً . بل ان الطوائف الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية تؤمن بمذاهبها ولا تؤمن بالمذاهب الأخرى . ولا يمكن أن يكون الجميع على حق وهم مختلفون ، فالحق واحد لا يتعدد ، والله وحده هو الذي يعرفه .

إن كل إنسان ولد عربياً أو فرنسياً أو أمريكياً ، ولد مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً ... ولد هكذا دون أن يستشار فيما يختار ، فوجد عقله مطالباً بأن يدافع عن كيانه ، وهكذا أقبل على كتابه السماوي ليستنبط أحكامه ، وأنصت لنبيّه المرسل يتبع أقواله وأفعاله .

ومن أجل هذا أرحب بالهيئات الدولية التي تسعى لحل الخلافات الإقليمية بالحسنى ، وأرحب بالتسامح الديني ما دام كل فرد يتمسك بعقيدته فلا يرضى عنها بديلاً إلا في ظروف قليلة خاصة . والإسلام يعمل بهذه الروح فيقول « لكم دينكم ولي ديني » .

ولكن التمسك بالدين والوطنية لا يبعدني عن التعرض للفضيلة . فهل الفضيلة مجموعة من مبادئ السلوك المطلقة ؟ أو هي محاولات لتحقيق مصلحة المجتمع ؟ إن كانت مبادئ فهي ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان . وإن كانت محاولات فهي بطبيعتها تتغير من عصر إلى عصر ومن دولة إلى دولة ، والعبرة في النهاية بما يترتب عليها من خير .

ولكن هل الفضيلة هي الخير نفسه ، أو هي وسيلة إلى هذا الخير ؟ إذا كانت هي الخير فالصدق مطلوب في جميع الأحوال ، ومن الواجب أن نقول للأعور « أعور في عينه » ، ولمن حرمت نعمة الجمال أنها قبيحة ، وأن نحذف أساليب البيع والعلاقات العامة من إدارة الأعمال ، ونلغي الإتيكيت من قواعد الاجتماع ، ونرفع السياسة والتربية من العلوم السلوكية فإنها جميعاً تقوم في كثير من صورها على المجاملة والمغالطة .

الغاية تبرر الوسيلة

وإذا كانت الفضيلة وسيلة إلى الخير فالوسيلة تتشكل بحسب الأحوال ، والأمر في ذلك متروك للضمائر . فإذا استراحت للأسلوب فالأسلوب فاضل ، وإذا لم تسترح له فهو غير ذلك . ومعنى هذا أن

الغاية تبرر الوسيلة كما يقول «مكيافيلّي» .

إنني أوجه سؤالاً صريحاً للعرب : لو جاءكم وسيط فأظهر استعداده للحصول على قنبلة ذرية تكفل النصر لكم مقابل رشوة في مقدوركم فهل ترفضون العرض لأن الرشوة حرام ، أو تقبلونه لأن في قبوله خيراً لكم ؟ وفي الإجابة عن هذا السؤال ماذا يكون تعريف رجل الأعمال الفاضل ؟ هل هو الذي يداور عميله ليبرم الصفقة لمؤسسته ، أو هو الصريح الذي يقول إن سلعه أقل من السلع المنافسة أو أغلى منها ، وليذهب العميل إلى حيث يشاء ؟

هل هو الذي يعطي نسبة صغيرة إلى سكرتير أحد المديرين فيعقد لمؤسسته صفقة كبيرة ، أو هو الذي يعتبر هذا العمل رشوة ولتذهب مؤسسته إلى الجحيم ؟

إن الكذب المكشوف في المعلومات يفقد المندوب ثقة الناس ، والصدق الكامل يكشف عيوب السلعة أو الخدمة التي يبيعها ، ولذلك ابتدعت أساليب البيع حلاً وسطاً عليه مسحة الصدق وليس فيه جوهره . ان هذا الحل يعلم الناس كيف يبدءون الحديث مع العميل بجذب انتباهه ، ثم ينتقلون إلى إثارة اهتمامه ، ثم يشبعون هذا الاهتمام . ومتى لمح المندوب على وجه العميل بادرة الرغبة طرقها وهي ساخنة فقدم عقد البيع له واستمضاه .

والمندوب وهو ينتقل بعميله من مرحلة إلى مرحلة ، لا يتجه إلى عقله بقدر ما يتجه إلى نوازعه ، فهو لا يحاول خلق اقتناع بقدر ما يسعى إلى خلق انطباع . وهو في سيره يعمل كسيارة الركوب القوية التي يبدو

أنّها تجري على مهل مع أن عدادها يشير إلى مائة وستين كيلومتراً في الساعة !

خداع الأرقام

ذلك والأرقام تتسابق في تقديم الحقائق بعد أن تباعد بعد شفتيها لتبتسم ، وتضع المساحيق على وجهها لتتجمل ، فإذا الجو كله يوحي بالصدق ، وهل أصدق من الأرقام ؟ ولكن للأرقام هي الأخرى لغتها في الكذب . فإذا قالت إن متوسط الأعمار في قاعة هي إحدى وعشرون سنة ، فالذي يتبادر إلى الذهن أن الحاضرين شباب ، ولكن قد يظهر فيما بعد أن نصفهم أطفال ونصفهم شيوخ ! وإذا قالت إن إحدى المدارس تفوق الأخريات لأنها حققت نجاحاً في الشهادة الثانوية بنسبة ١٠٠ ٪ على حين حققت الأخريات نسباً تتفاوت بين ٥٠ ٪ ، ٩٠ ٪ فقد يتبين بعد ذلك أن الذي تقدم من المدرسة المتفوقة تلميذ واحد نجح ، ولو كان قد رسب لكانت نتيجتها صفراً في المائة . ذلك والمتقدمون من المدارس الأخرى عشرات ومئات .

بين الرشوة والمجاملة

أما الرشوة فمسألة فيها نظر .. فقد يقدم المندوب لعميله مبلغاً من المال أو نسبة مئوية من قيمة الصفقة . وقد وافق رجال البيع على اعتبار هذا رشوة ، ولكنهم أباحوا تقديمها ولم يبيحوا قبولها . إن من حق المندوب أن يرشو عميله إذا باع ، ولكن ليس من حقه أن يرتشي إذا اشترى ... اتجاه غير منطقي ولكنه مطبق ..

والرشوة في عرف رجال الأعمال غير المجاملة . فالرشوة تكون عن صفقة أو صفقات محددة ، والمقصود بها أن يتصرف المرتشي تصرفاً محدداً يتنافى مع واجبه ، فالقصد الجنائي موجود بلغة أهل القانون .

أما المجاملة فتكون بالإهداء في الأعياد والمناسبات ، وبالدعوات العامة والخاصة ، وبتقديم الخدمات كالاستقبال في المطار ووضع سيارة في خدمة العميل أثناء زيارته دون مطلب إلا أن يخلق جواً من الصداقة يسهل فيه التعامل .

ولكن كيف نحدد الخيط الرفيع الذي يفصل بين الرشوة والمجاملة ؟ انني أعرف رجلاً أميناً من رجال الحكم ارتشى وهو لا يدري . ذلك أن رجل الأعمال الذي يتعامل معه عرف أنه يبحث عن سكن مناسب لابنته المخطوبة فسارع إلى صاحب عمارة جديدة ودفع له معظم الخلو المطلوب على أن يطالب رجل الحكم بالباقي . وذهب الرجل الأمين مع رجل الأعمال بعد أن ادعى هذا أن صاحب العمارة صديقه وهنالك جعل يمزح معه أحياناً ويغلظ له في القول أحياناً أخرى حتى رضي الرجل في النهاية بأقل القليل وهو الباقي له من الخلو . لم يكن في وسع رجل الحكم أن يرفض هذا الفضل من رجل الأعمال وهو لا يكلفه شيئاً ، كما لم يكن في وسعه كبشر أن يتجاهل هذا الفضل في معاملاته معه فيما بعد .

لقد مارست هذا النوع من الرشوة أو المجاملة مع انطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام وكان مغرماً بالشعر فحفظت له مقطوعات من القصائد التي أعرف أنه يحبها وكنت أحدثه فيها فأكسب مودته

وأقنعه بقضاء مصلحتي مع أن الذهب والخمر والنساء كانت لا تفلح جميعاً في التأثير عليه .

نقط الضعف في الإنسان

إن في كل إنسان نقط ضعف ، فمن الناس من يؤثر المال ، ومنهم من يؤثر النساء والخمر ، ومنهم من يتفانى في حب ابنته الصغيرة . ومهمة رجل الأعمال أن يفتش عن نقطة الضعف في عميله ليشبعها فإذا المفتاح يدور والباب ينفتح . ولكن إلى أي مدى يذهب ؟

وما أقوله عن رجال الأعمال أقول مثله عن رجل السياسة . فالسياسة زيف في زيف ، وهي محاولة مستمرة لإلباس الباطل ثوب الحق في لغة حريرية وقوة حديدية . والسياسة تعتمد على خداع النفس والتجسس والوقيعة بين الشعوب ، كما تعتمد على فعل الخير وتشجيع المثل العليا ودعم الحضارة إذا كان هذا أقرب لتحقيق أهدافها . ففي أي نقطة تصطدم السياسة بالفضيلة ؟

أين دور الفضيلة ؟ هل دورها أن تقوم بوظيفة الدجاجة التي تنام على بيضها في جو مقفل ، أو أن تعتلي المنابر في المساجد والكنائس عساها تخفف من ضغط المصالح وتعلي من شأن الأخلاق ؟ أليس من الخير أن تفتح أبوابها وأن تنزل من عليائها وتنفتح على الناس لتعايش الواقع الذي يعيشون فيه ؟ إن في وسع الفضيلة أن تثبت وجودها في أخريات القرن العشرين كما أثبتته في عهود الإنسانية الأولى ، وكل ما هو مطلوب منها أن تتنازل قليلاً عن مثلها العليا لتتفاعل مع الأوضاع القائمة التي استقرت ولكن كيف ؟

الأمانة المثالية والأمانة العملية

للإجابة عن هذا السؤال يفرق علماء الإدارة بين الأمانة المثالية ethical honesty والأمانة العملية business honesty فيقولون إن من يكتب لأحد أصدقائه خطاباً على ورق المؤسسة التي يديرها أو يكلم زوجته في شأن عائلي من تليفون المصلحة التي يعمل فيها فهو سارق ، ولكن رجال الأعمال يحفظون مثل هذه القضايا لعدم الأهمية كما يقول رجال القانون .

والهدايا التي يقدمها المنتجون لمديري الشركات في المواسم والأعياد يتسامح فيها علماء الإدارة لأن القصد الجنائي ليس موجوداً كما تقدم .

والصحفي الذي يسرق الخبر من درج الوزير بالاتفاق مع السكرتير يحتمي بسر المهنة إذا قدم للقضاء ، بل انه يحاكم أمام نقابة الصحفيين إذا أفصح عن مصدره .

والدولة التي تكلف مخابراتها بالحصول على معلومات عن عدوها تسخر ضعاف النفوس عنده وترشوهم ليضروا أوطانهم .

لقد سعيت يوماً للحصول على دين كبير لمؤسستي فعرفت أن للمؤسسة المدينة مجموعتين من الدفاتر إحداهما حقيقية للشركاء والأخرى مزيفة لمصلحة الضرائب وأن الدين مبين في المجموعة الأولى فاستعنت بكاتب حسابات خائن ليدل على المجموعة المخفاة نظير جعل ، وبذلك حصلت لمؤسستي على حقها ، فهل أخطأت حين فعلت ذلك ؟

إن على العرب أن يكونوا رجال أعمال في الانتاج والتجارة والسياسة والحروب . وأنا لا أتهم في هذا بلداً وأستبعد آخر . عليهم جميعاً

أن يفهموا الخير في العبادات على أنه لله وحده ، وفي المعاملات على أنه السعي لتحقيق نتائج مضافة لا مجرد شعارات جوفاء .

إن العرب يدفعون البقشيش حين يحجزون غرفة في فندق ، ويقبل المنحرفون منهم الرشوة على نحو ما تنشره الصحف . والفرق بين البقشيش والرشوة أن قيمة الأول صغيرة وقيمة الثانية كبيرة . فلماذا نتحدث بغير ما نعمل ؟

إنني لم آت بجديد غير معروف ، ولكنني ألح على العرب في أن يصارحوا أنفسهم ونحن في أواخر القرن العشرين - بالمبادئ التي فرض الواقع عليهم أن يسيروا عليها ليعملوا في توافق مع أنفسهم ولا يتخبطوا بين ما هو تراث وما هو تجديد .

الفصل الثاني

العالم العربي من التقاليد إلى التحرّر

كنت في العشرينات (بعد الميلاد طبعاً) أتردد على الأزهر وأنا طالب بالمدارس الثانوية ، وأجلس مع من يتحلقون على حصيرة حول أستاذ يتربع على مرتفع ويحاضرهم في «علم الخصائص التي أودعها الله سبحانه وتعالى الأشياء» وهذه الجملة الممطوطة هي أقرب إلى الإملاء منها إلى الاسم ، ولكنها هروب من كلمة واحدة هي «الطبيعة» لأن الطبيعة كانت تعتبر كفراً ما دامت بديلاً من لفظ الجلالة .

وكان الأستاذ يخلط في دروسه بين الطبيعة والكيمياء ، فيحدث تلاميذه في الأحماض ويقول إنها تحرق الثياب . ونهض شيخ من الطلاب يتساءل في استنكار «كيف تحرق وهي سوائل ؟» فأيّده الجميع في استنكاره ، ورفعوا أصواتهم في احتجاج على هذا اللامعقول ، ولم يجد الأستاذ بدأً من أن يطلب عباءة الطالب المستنكر ويسكب عليها الحمض فإذا السائل يحرق صوفها فعلاً ويمرق من وجهها إلى

ظهرها ... وآمن الطلاب عندئذ بأن السوائل تحرق الثياب !

هذه الحكاية تعكس أسلوبنا في التفكير ، هذا الأسلوب الذي يلازمنا ويأبى أن يفارقنا ، فنحن ما زلنا نعيش في الماضي : نقاوم التطور الحاضر ، ونعادي من يتحدث بلغة المستقبل ، لأننا أعداء ما نجهل .

ولقد عاشت الأمة العربية طويلاً في تقاليدها ، ولم تعش كثيراً في مشاكلها العملية . والاقتصادية . عاشت في أحلامها ولم تعش في واقعها . التفت حول روحانياتها ولم تحفل بامكاناتها . عرفت أن مصر كنانة الله في أرضـه فلم تسع إلى زيادة الإنتاج . استنامت لقول من قال « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » ولم تبحث لهذه الحرة عن جلباب تلبسه أو كسرة عيش تأكلها حتى لا تقع في الزلل . أهملت محاصيلها فلما أكلها الدود والحشرات رفعت عيونها إلى السماء وأيديها بالدعاء ولم تنهض لمحاربة الآفات ، وهكذا ازدهر الشعر والأدب والقصة وراجت الخزعبلات ، ولكن كتب العلم لم تجد طريقها إلى اللغة العربية إلا في القليل ، كيف السبيل إذن إلى أن تضع الأمة العربية تقاليدها في خدمة تقدمها ؟ وكيف تنتزع نفسها من عهد عنترة بن شداد لتعيش في عهد الذرة والصواريخ والأسلحة الإليكترونية ؟ لا سبيل إلا أن تكتوي بنار الحرب كما اكتوت عباءة الطالب الأزهري بسائل الحمض .

صحوتنا على معارك ٦ اكتوبر

وها هي ذي معاركنا مع إسرائيل في سنة ١٩٧٣ تقوم بهذا الدور ،

حتى ليصح فيها قول طه حسين «الحرب تصيب الناس بما نشهد الآن من ضرر ، وتروي الأرض بما تقشعر له أبداننا من دماء ، ولكن ما تكاد الدماء تجف حتى يهب الإنسان من وقفته الحائرة ، وإذا قوة حياته المادية والعقلية قد ضوعفت ، وأصبحت أقدر على الجهاد وأصلح للبقاء .

«فليست الحرب كما يظن البعض نذيراً يؤذن بكساد المدنية وإفلاس الحضارة ، وإنما هي آية تغير الحياة الإنسانية ، ودليل انتقال من حال إلى حال أظهر منها نفعاً وأقرب إلى الكمال» .

والواقع أننا كنا قبل حرب اكتوبر نؤمن بالوحدة العربية إيماناً مسجوعاً فنقول «وحدة الماء ، وحدة الهواء ، وحدة الغبراء ، وحدة اللغة والسماء» فأصبحنا نعالج الوحدة بلغة النفط والبنوك وشركات التأمين والطيران والسياحة والقوة الشرائية ، ونحسب حساب القوى العظمى وهي أمريكا وروسيا وغرب أوروبا .

كنا نتحدث عن الأخوّة العربية ، فأصبحنا نتحدث بلغة المصالح المشتركة . وكنا نتحدث عن الهبات والمساعدات ، فأصبحنا نتحدث بلغة التعاون وتبادل الخدمات ، كنا نفكر في وحدة التاريخ ، فأصبحنا نفكر في وحدة المِصير .

العلم والإيمان

إن الصراع مع إسرائيل وغيرها لم يعد يكفي القتال والانتصار للتفوق فيه ، وإنما يتحقق ذلك بالعلم والإيمان . فالحرب الحديثة في حاجة إلى المال والتكنولوجيا قبل الشجاعة . وهذه الحرب لم تعد

حرب جيشين يقفان في الجبهة ويتبادلان الطلقات والطعنات ، وإنما هي مباراة حضارية بين شعبين .

ولنتعلم درساً كبيراً هو أن الاتحاد السوفيتي لم تمنعه إيديولوجياته من سياسة الوفاق مع الولايات المتحدة . والولايات المتحدة برغم عدائها للشيوعية طرقت أبواب الصين ووافقت على انضمامها إلى هيئة الأمم ومجلس الأمن .

لنأخذ لنا عظة من هذين الاتجاهين ، وليحتفظ كل بلد عربي لنفسه بمذاهبه الطائفية والاجتماعية والسياسية مع التفاف الجميع حول قاسم مشترك أعظم هو :

١ – تكنولوجيا حديثة .

٢ – اقتصاد سليم .

٣ – جيش قوي .

وله في هذا أسوة حسنة بالسوق الأوروبية المشتركة . بهذا يعيش وإلا فالويل له !

بين التقاليد والتحرر

لقد كان العربي القديم في عهد الرعي يحمل خيمته ويقود ناقته ومن خلفه غنمه إلى حيث يجد الماء ، ولذلك قالوا «المورد العذب كثير الزحام» وتضاءلت إلى حد كبير قيمة المكان فلم يعد الولاء له بقدر ما كان للمرعى أين يكون .

ولما حلت الزراعة محل الرعي في مصر والسودان وسوريا والعراق استبدل الناس البيوت بالخيام ونشأت التجمعات في القرى وتزايد

الشعور بالانتماء للمكان ، وقويت الروابط بين الأسر ، وتجمعت السلطة في يد الدولة في مجتمع النهر بعد أن كانت متشتتة في مجتمع المطر ، وظهرت الملكيات في شكل مزارع خاصة وبيوت من الطوب والآجر .

ولما دخلت البلاد الزراعية عهد التصنيع زادت التجمعات في المدن حتى أربى سكان القاهرة على تسعة ملايين وسكان الإسكندرية على مليونين وسكان دمشق وحلب وبغداد على مليون .

ثم دخلت السعودية والكويت وإمارات الخليج وليبيا والجزائر عصر البترول فعاد أهلها إلى عصر التحرر . والتحرر الجديد قائم على التخفف من الارتباط بالأهل والمكان والسلع .

التحرر من الأهل

إن نسبة العاملين في الزراعة تتراجع لصالح الصناعة واستخراج البترول . وما أظن العاملين في الأرض يزيدون الآن على الثلث . ومهما بلغ الاتجاه إلى التصنيع في مصر والسودان وسوريا ولبنان وغيرها فإن بلاد البترول تجري في مضمار التحرر جرياً هيهات أن تلاحقها فيه البلاد الأخرى بزراعتها وصناعتها .

أهمية الطاقة

ولكي نقدر الأهمية التي أصبحت لدول البترول يجب أن نعرف أن استهلاك العالم منه في القرن الأخير يعادل نصف ما استهلكته البشرية من الطاقة منذ ولد المسيح ! وكنتيجة لارتفاع الدخل فإن المراهق في

بلاد البترول يجد نفسه اليوم مستمتعاً بأضعاف ما كان يستمتع به أبوه من السلع والخدمات . وعندما يصل المراهق إلى سن الثلاثين سيزيد التضاعف في هذه السلع . وعندما يصل إلى الستين فقد يصل التضاعف إلى عشرين أو ثلاثين مرة . ومعنى هذا أن نمط الحياة عند هؤلاء المراهقين يتغير بسرعة جنونية من سنة إلى أخرى وهم يلهثون وراءه فيكون لاندفاعهم معقباته الخطيرة من الناحيتين النفسية والاجتماعية . وإذا لم يتكيفوا مع هذا التيار الجارف فقد يتعرضون للتمزق الذي تعرض له الهيبيون في أوروبا وأمريكا .

سرعة المواصلات

الفرد الذي كان يركب الجمل فيسير بسرعة ستة كيلومترات في الساعة أصبح يجري بسرعة عشرين كيلومتراً في عربة تجرها الجياد . ثم زادت سرعته إلى مائة كيلومتر حين ركب القطار والسيارة وقفزت سرعته إلى أربعمائة ميل في الساعة حين ركب الطائرة . ومن يدري فقد يركب غداً الطائرة الصاروخية التي تصل سرعتها إلى ٤٠٠٠ ميل . والذين ركبوا كبسولة الفضاء ساروا بسرعة ١٨٠٠٠ ميل في الساعة ، ففي أي طريق نحن مسوقون ؟ لقد انتقل العربي من عصر الجمل إلى عصر النفاثة في خمس سنوات فما تأثير ذلك على عروبته وتقاليده ومعتقداته ؟

نزح العقول

ولقد كانت سهولة السفر وسرعته عاملاً كبيراً ساعد على هجرة

مئات الألوف من المدرسين والجامعيين والعمال من البلاد الزراعية حيث يتكاثر السكان ويقل الدخل ، إلى بلاد البترول حيث يفوق تزايد الدخل تزايد السكان . وهذه الهجرة تحدّ من وطنية العرب وتزيد من عروبتهم ، وهو نوع محمود من عدم الإغراق في الانتماء للوطن الضيق . إن المصري والسوداني والعراقي والسوري يقل تمسكهم بأوطانهم حين يجدون لأنفسهم أوطاناً أخرى . وحين يقودهم البحث عن عمل إلى أوطان ثالثة ورابعة فإن عروبتهم تعلو على مستوى أوطانهم وتخف صلتهم بأهليهم وأقربائهم وتشتد بزملائهم ومعارفهم في الأوطان الجديدة ، كما أنهم يتطبعون بطباع لم تكن لهم من قبل أن يهاجروا ، وهذه الطباع خليط مما رسب في نفوسهم من سلوك الذين عايشوهم .

هجرة العرب

ومن العرب – في البلاد الزراعية على وجه الخصوص – من يسافرون إلى أوروبا وأمريكا ليكملوا دراساتهم أو يتخصصوا في فنونهم ، فإذا راقتهم الحياة هناك حطوا رحالهم وتزوجوا من أجنبيات . و بمرور الوقت يقل تعلقهم بأقوامهم ، وتقتصر صلتهمّ بهم على تبادل الرسائل معهم في المناسبات . أما أبناؤهم فهم ينشأون نشأة غربية ولا يتكلمون العربية ، ثم يتجنسون بجنسية البلد الذي ولدوا فيه فتنقطع صلتهم ببلدهم الأصيل .

إن هجرة العقول العربية من البلاد الزراعية إلى البلاد البترولية أمر ملحوظ ، وهجرتهم إلى أمريكا وغرب أوروبا أمر محقق كلما لم يجدوا عند عودتهم من بعثاتهم إيقاعاً أسرع لحياتهم يلائم طريقتهم

الجديدة في العيش ، فالذين هاجروا مرة قد وهن فيهم الارتباط بالجماعة فأصبحوا أكثر قابلية للهجرة مرة أخرى .

إن التقدم الفادح في المواصلات والاتصالات قد جمع أرجاء العالم في مفهوم واحد ، فأصبح ارتباط الفرد بعمله مقدماً على ارتباطه بأهله ، وتغلغل التكنولوجيا في حياته جعل العلم منافساً لمعتقداته . وتقدم الحاسبات الإليكترونية جعل الأرقام تطغى على الروحانية في نفسه .

التحرر من المكان

المشاهد اليوم أن السيارة قد أصبحت من ضروريات الحياة في كل بيت عربي . بل إن المراهق لا يطيق أن يصل سن الثانية عشرة دون أن تكون له سيارته الخاصة . ومعنى ذلك أن «العز في النُّقل» كما يقولون والذين ليس لديهم سيارات خاصة يستجيبون لدافع التنقل بواسطة «الأوتوستوب» .

إن ألوف السيارات تسد الطرق سداً في الكويت والسعودية وبيروت والقاهرة ، فالفرد يرى في تغيير المكان ترويحاً عن نفسه ، والأسرة تفضل قضاء عطلة الأسبوع بعيداً عن البيت ، ورجل الأعمال يهرب من الزحام فيسكن في أطراف المدينة . ومن الأسر القادرة ما يكون لديها أكثر من سيارة ، بل أن منها ما لديه سيارة لكل فرد فيها . وقريباً ستصبح الطائرة الخاصة من ضرورات الحياة الحديثة فلا تقتصر على عدد محدود من الأثرياء العرب .

ورحمة الله على من كنّ يسكنّ في حي الأزهر بالقاهرة فلا تجرؤ إحداهن على شراء حذاء لنفسها لأن المفروض ألا تخرج من بيتها إلا إلى بيت زوجها ليلة الزفاف . لقد عاصرتُ في حياتي رجلاً في قريتي لم يركب القطار قط في حياته ، فلما سألته عن ذلك قال إنه يدوخ من سرعته حين يراه يمرق أمامه ، فكيف إذا ركب فيه ! وقد كان الصحفي الكبير محمد التابعي والموسيقار محمد عبد الوهاب يخافان من ركوب الطائرة لأنهما لا يطيقان أن يكونا بين الأرض والسماء معلقين في الجو .

ذلك ومؤلف الكتاب المشهور «صدمة المستقبل Future Shock يروي أن أحد المديرين في نيويورك يستقل المصعد من الطابق التاسع والعشرين إلى الطابق الأرضي ثم يسير على قدميه عشر دقائق يصل بعدها إلى مطار وال ستريت للهليكوبتر حيث تهبط بـه الطائرة بعد ثماني دقائق في مطار كنيدي ، وهناك ينتقل إلى إحدى النفاثات حيث يتناول العشاء والطائرة تندفع به إلى مطار كولومبس فتصله بعد ساعة وعشر دقائق ، وهناك يجد سيارة في انتظاره فيستقلها إلى منزله ليصله بعد ثلاثين دقيقة ، وهكذا يقطع المدير هذه الرحلة الطويلة كل أسبوع ليقضي العطلة مع أسرته على بعد خمسمائة ميل من مقر عمله ، ويقطع سنوياً في الذهاب والإياب ٥٠,٠٠٠ ميل . وهكذا تقضي سرعة المواصلات على بعد المسافات فيقل تشبث الناس بالمكان . ولولا الطائرات لما تمكن رجال الأعمال في جدة من التردد على الرياض . ولولا السيارات لما تمكن أهالي بيروت من مزاولة أعمالهم في الصباح والعودة للجبل في الصيف بعد الظهر .

التحرر من السلع

إن علاقة العرب في بلاد البترول بالأشياء لا تدوم اليوم طويلاً كما كانت في الماضي . وإذا كان رب الأسرة يبني لنفسه بيتاً كبيراً مستقلاً ينفق فيه حياته ، فإن أبناءه سيفضلون غداً أن يستأجروا لأنفسهم شققاً حديثة بها أثاث قليل وتكييف وموسيقى . وقد يغيرونها كلما أرادوا حتى لقد ينتهي بهم الأمر إلى أن يعسكروا بدل أن يسكنوا !

وإذا كان العربي – كما قلت – حريصاً على اقتناء سيارته فقد يفضل استئجارها غداً . وفي الولايات المتحدة وأوروبا يستأجر الفرد سيارته في أي مطار أو محطة سكة حديد أو فندق ، بل هو يستأجر السيارة من الماركة التي يفضلها بالتليفون !

وإذا كانت الفتاة العربية تنفق اليوم على فستان زفافها مئات الجنيهات فإنها قد تتجه غداً إلى فستان من الورق كما تفعل الأمريكيات فتلبسه الواحدة ليلة الزفاف ثم تتخلص منه . وما أقوله عن الفستان أقول مثله عن الأطباق والمناشف الورقية .

إن قداحات السجاير التي لا يعاد ملؤها بالغاز وإنما تلقى بمجرد أن تفرغ شحنتها تلقى رواجاً كبيراً في العالم العربي مما يدل على فعل الإعلان في نشر الروح الاستبدالية بين العرب . إنهم يفضلون أن يرتبطوا بعدد متتابع من القداحات على أن يظلوا فترة طويلة مرتبطين بقداحة واحدة . وريشة الكتابة القديمة حل محلها قلم الحبر ليساير الحرية في التنقل ، ثم جاء بعده القلم الجاف وهو من الرخص بحيث يمكن رميه بعد أن ينتهي .

إن التقنية المتقدمة تجعل تكاليف التشغيل بالآلة أرخص من تكاليف

الإصلاح باليد ، ولذلك فإن الاتجاه الحديث هو إلى إنتاج سلع أقصر عمراً ولكنها في الأجل الطويل أرخص من السلع المعدة للإصلاح .

وحتى السلع المعمرة أصبح الاتجاه فيها إلى أن تكون أقصر عمراً ، فالجيل الأول من الحاسبات الإليكترونية أقل دواماً من الجيل الثاني ، والجيل الثاني أقل دواماً من الجيل الثالث ، ولذلك فالمطلوب اقتصادياً إذن هو انتاج الكمبيوتر الذي لا يعيش أكثر من اللازم ، بل إن الاتجاه الحديث هو إلى الكمبيوتر الصغير (ميني كمبيوتر) أو الكمبيوتر الأصغر Micro الذي يصمم لخدمة الدكاكين الصغيرة أو كل إدارة من إدارات الشركات الكبرى على حدة

هذه الضغوط تشجع ثقافة التحرر من الأشياء ، ولذلك يحق لنا أن نتوقع في المستقبل القريب انتشار الإيجارية على حساب الملكية ، لأن الإيجارية تختزل علاقة العربي بالأشياء ، وعلاقته تعكس حكمه على القيم .

والخلاصة

إن العربي يذيب عروبته اليوم في محلول من العالمية – أراد أم لم يرد – فإن التقدم المذهل في المواصلات والأقمار الصناعية والتليفزيون ، وفي الثقافة التي ترفع لواءها فوق اتجاهات الناس في جميع الأقطار ، هذا التقدم تيار عالمي جارف لا بد أن يسير العرب فيه ، ومن شأنه أن يخفف من ارتباطهم بالأهل والمكان وبالسلع . وهذا التخفف يترك أثره في مدى تمسكهم بتقاليدهم وعقائدهم .

فعلى المصلحين الدينيين والاجتماعيين أن ينهضوا من الآن لتفادي

آثاره المستقبلة المدمرة . عليهم أن يجدوا الصيغة الجديدة للكيان العربي ، وأن يحددوا المكان الذي يقتعده الإنسان العربي بعد أن يقل اعتماد الطاقة على البترول ، وتطغى المادة على القيم الأخلاقية ، ويحل التحرر محل التقاليد .

إن رسالتنا فيما بقي من هذا القرن وما بعده من أعوام هي الدعوة في المنطقة العربية إلى النظرة الواقعية ، ووضع تقاليدنا في خدمة أهدافنا . لقد آن الأوان لكي نؤمن بالبحث قبل المقال ، وبالأرقام والنسب المئوية بدل الصفقات وأفعل التفضيل ، وبالمساواة بين العبارة والمعنى بدل الأطناب في البيان والبديع . وعلينا أن نكرم العقل ونحكّمه في العاطفة ، وننصرف عن المستحيل إلى طلب الممكن ، ونضع المصالح جنباً إلى جنب مع المبادئ .

إن الإيمان لله وللوطن العربي ، ثم لكل مواطن بعد ذلك أن يؤمن معهما بمذهبه الخاص ، على أن يروض نفسه على السماحة في معاملة المذاهب الأخرى ، بدل أن تكرهه الأحداث على التسليم بها .

هكذا تضع العروبة أقدامها في أعماق التاريخ ، وتسير إلى سنة ٢٠٠٠ ، ثم تهرول مسرعة فيما بعدها لتلحق بركب الحضارة ، والركب يجري في المسالك التي سبق بيانها فلا ينتظر المتخلفين .

الفصل الثالث

ثقافتنا في عصر الذرّة وغزو الفضاء

الحواس تتلقى المعلومات فتكون المعرفة ، والمعلومات تتفاعل مع الملكات فتكون الثقافة . إن من الفلاسفة من يعرف كثيراً من المعلومات ولذلك يقدر على تعليل كثير من الظواهر العلمية . ولكن معلوماته تبقى في استقلالها عنه طافية فوق ذهنه فلا تتفاعل معه .

ومن الأميين من لهم فضل كبير على البشرية مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من ساد في قومه مثل عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي ورئيس مجلس إدارته السابق ، ومنهم من حقق لنفسه خيراً كثيراً مثل بعض التجار .

إن المعرفة كمٌّ والثقافة كيف . ولا تصبح المعرفة ثقافة إلا بعد أن تتكيف مع استعدادات الشخص وظروف البيئة ، فالمعرفة من أكبر أدوات الثقافة ، ولكنها ليست مرادفاً لها . ذو المعرفة جامع معلومات ، والمثقف متوازن العقل يجيد الحكم على الأشياء ، ويحسن استخلاص النتائج منها . إن عنده استعداداً ذهنياً لانتقاء أحسن الحلول من بين البدائل .

وانسياقاً وراء هذا المعنى أقول إن الفن ثقافة ، قبل أن يكون معرفة . فالدكتور الحفني كان عالماً موسيقياً ولكنه لم يكن موسيقاراً مثل محمد عبد الوهاب . وبيكاسو وصلاح طاهر وبيار صادق لا يحكّمون عقولهم في رسم اللوحات قبل أن يحكّموا أمزجتهم . والمثال الذي نحت تمثال رياض الصلح في بيروت لم يخرجه على هذا النحو كنتيجة حتمية لبحث علمي ، وإنما أخرجه من وحي انفعال فني طارئ ، وعبد السلام الشريف مدير معهد التذوق الفني بالقاهرة سابقاً انتقد إخراج شارع الهرم وبرر انتقاده بأن القيشاني لا يستخدم إلا في حمام أو عند شربتلي ، وهو اتجاه فني وليس بحثاً علمياً .

الخلاصة أن الثقافة غير المعرفة ، وإن كان الفصل بينهما صعباً كما رأينا .

المعرفة والسلوك

والمعرفة غير السلوك ، فالمعرفة معلومات يغذي بعضها بعضاً . وهي مقدمات عقلية تؤدي إلى نتائج منطقية . أما السلوك فهو نزوع قد يكبته العقل بعض الوقت أو يخفف منه ، ولكن النزوع يظل مستكناً في اللاشعور يبحث عن فرصة للانطلاق . ومتى انطلق ترك للعقل أن يبرر تصرفه فيختلق له المسوغات لتصلح أسباباً .

إن السلوك هو الشجاعة أو الجبن . هو الكرم أو البخل . هو الرزانة أو الحمق ، ولكن المعرفة هي التي تكتب النجاح للعالم في معمله ، وللفيلسوف في بحثه ، ولعالم الفضاء في إطلاق مركبته .

ومعظم القادة ينجحون بالسلوك أكثر مما ينجحون بالمعرفة ،

فنابليون وهتلر وموسوليني وستالين ومصطفى كامل وسعد زغلول ورياض الصلح وجمال عبد الناصر لم يكونوا أعلم أقوامهم وإنما كانت شجاعتهم هي التي جعلت منهم قادة ، ولعل عبد الخالق ثروت واسماعيل صدقي وعلي ماهر كانوا أعلم من سعد زغلول ، ولكنه تفوق عليهم لأنه كان أكثر منهم وطنية وشجاعة .

على أن كلا من المعرفة والسلوك لا غنى له عن الآخر ، فالمعرفة لا تستغني عن السلوك ، لأنه هو الذي يصوّبها نحو ما تريد ، وهو الذي يكيّفها ليلائم بينها وبين أهدافها . وكذلك لا يستغني السلوك عن المعرفة ، فالسلوك من غيرها طيش ، بل هو انفعال حيواني يصدر عن غريزة دون أن يأخذ جرعة من العقل تؤصله وتحدد مساره .

وإذا كانت المعرفة بطبيعتها موضوعية تقوم على قواعد ثابتة ، فإن السلوك ذاتي يتقلب بتقلب الظروف والملابسات .

إن المعرفة سكونٌ والسلوك حركة . ولذلك لا تتغير المعرفة بتغير الأحداث على حين تفرض الأحداث نفسها على السلوك . وهذا القول نفسه هو من قضايا المعرفة لأنه ينبثق من منطقها . وما دام كذلك فهو قابل للتأييد وللنقد . وهذه القابلية تجعل المعرفة مرنة تحتكم إلى العقل ولا تستبد باتجاهها كالسلوك حين يصدر عن انفعال .

المعرفة والمعطيات

إن المعطيات تصل إلى من يستقبلها عن طريق السمع أو البصر أو الشم أو الذوق أو اللمس أو عن طريق اثنين أو أكثر منها . وهي في حاجة إلى الفهم لكي تتفاعل مع التجربة فتتحول إلى معرفة ، وقديماً

قال الجاحظ في وصف إنسان غبي :
«يسمع غير ما قيل ، ويفهم غير ما سمع ، ويكتب غير ما فهم» .

إن المعرفة الحقة تقتضي التدقيق في استقبال المعطيات ، وتستلزم فحصها وتقليبها ومقارنة بعضها ببعض - القديم منها والجديد - قبل ضمها إلى حصيلة المعارف التي هي رأس مال المفكر .

والإنسان الذي لا يشبع من المعرفة تزداد معارفه بمضي الزمن فتزداد مقدرته على استيعاب كل جديد ، لأن نسبة ذكائه المكتسب تتعاظم بتعاظم المعارف التي تكونه فيقل الوقت الضروري لقراءة كتاب أو حل مشكلة ، وبذلك تتسع إحاطة الإنسان بالأشياء شيئاً فشيئاً في متوالية هندسية .

و بما أن المعطيات تحتمل الصدق والكذب فان على مستقبلها أن يستوثق من صدقها بالرجوع إلى مصدر آخر على الأقل لا علاقة له بالمصدر الذي تلقاها عنه . إن مرسل المعطيات يتأثر ببيئته ومزاجه ومصلحته دون أن يشعر ، فهو في حديثه أو كتابته ليس موضوعياً بحتاً ، وأقصى ما ننتظره منه أن يتمتع بمرتبة عالية من التجرد .

ومن الناحية الأخرى قد لا أذهب بعيداً إذا قلت إن المعطيات لا تترك بالضرورة نفس المحتوى الذي أراده مرسلها ما دام مفهومها النهائي يتوقف على ثقافة من يستقبلها ، فهي قد تتطور في معناها بمجرد أن تنتقل من شخص إلى شخص .

لقد قال علماء الإدارة إن المدير لا يستطيع أن يعتمد اعتماداً كليا على التقارير التي تصله من مرءوسيه لأنها تتلون بلون كل منهم شاء أو لم يشأ ، فعليه - لكي يسمع ويرى بنفسه - أن يتجول في منشأته

وأن يحتك بالعاملين وبالجمهور ليعرف «الواقع» .

ولكننا نعود فنقول إن المدير يترجم ما يسمعه وما يراه في ضوء تجاربه الشخصية وهي غير محايدة ، فحكمه لا يمكن أن يكون مضبوطاً وهو يقيسه بمسطرة هذه التجارب .

وبالمثل لا يستطيع المرء أن يثق في المنطق وحده ، فالمنطق صناعة تحق الحق وتبطله ، والعبرة في النهاية بمهارة المنطيق . وكثيراً ما يستمع القاضي لوكيل النيابة فيقتنع بأن المتهم مجرم ، ثم يستمع للمحامي عنه فيقتنع بأن المتهم بريء ، وقد يحكم في النهاية عن انطباع يستريح له ضميره لا عن معرفة تتفق مع الحقيقة .

بين العلم والخبرة

تلقينا ونحن شباب أول درس من أساتذتنا وهو أن مهمة الجامعة هي أن تعلمنا كيف نتعلم ، فنحن نتلقى العلم فيها ولكننا نحتاج في تطبيقه إلى التجربة . وخرج الطبيب فوجد أنه يفتح الدّمّل فيمتلئ بعد ذلك بالصديد ، وخرج المهندس فوجد أنه يقيم الحائط فلا يلبث أن يميل ، وخرج التجاري فلم يدر إن كان الاعتماد الذي لا رجوع فيه يفتح بمفتاح أو ببرقية إلى بنك آخر .

لقد وجد الجميع أن ما قاله الأساتذة صحيح ، فقد قدم العلم لهم قواعد عامة تصح في مجموع الحالات ولا تصح في جميعها ، وعلى كل منهم أن يطور القاعدة ويطرّقها في ضوء تجاربه قبل أن يعملها لتلائم كل حالة بخصوصها .

وانطلاقاً من هذا المفهوم طوّرت المعاهد برامجها وأفسحت في

وقت الدراسة للمعمل وللورشة والمشرحة ، واشترطت مجامع المحاسبين أن يتدرب الطالب ثلاث سنوات عند أحد المحاسبين المجازين ، ومجامع الإعلان أن يتدرب في إحدى وكالات الإعلان المعتمدة ... وهكذا . بل اتجهت بعض الجامعات اتجاهاً عملياً فظهرت في أمريكا كلية الأعمال business faculty وظهرت في مصر جامعة حلوان التطبيقية .

ثم تواضع الناس على التفرقة بين رجل القانون والمحامي ، وبين أستاذ الإدارة والمدير ، وبين أستاذ التربية والمربي . يريدون بذلك أن الأوائل علماء والآخرين ممارسون .

وإن أَنس فلن أنسى بحثاً اجتماعياً قام به مركز علمي في القاهرة فوجد أستاذاً كبيراً حاصلاً على الدكتوراه من أمريكا في محاربة الشذوذ طلق امرأته الأولى لأنه كان يعد رؤوس الثوم في المطبخ فوجد واحدة ناقصة ، وطلق امرأته الثانية لأنه كان قد عاقب ابنته منها بالوقوف إلى جوار الحائط ثلاث ساعات مرفوعة اليدين وانصرف إلى عمله – أو هكذا صوّر لها – ثم عاد قبل انتهاء مدة العقوبة فوجد الأم قد أفرجت عنها بعد أن رأت إعياءها . ووجد المركز في هذا البحث أن أحد أساتذة التربية قد فشل فشلاً تاماً في تربية أبنائه الثلاثة فأكبرهم رسب ثلاث مرات في الشهادة الإعدادية ، والثانية مهتزة الشخصية ، والثالث ناجح لأنه كما قال ثائر على تعاليم والده !

والواقع أن العلم هو حصيلة خبرات كثيرة انصبّت آخر الأمر في قواعد ولذلك قالوا إن القاعدة الصحيحة هي التي تصح عند التطبيق good theory is good practice ولكن العلم يبقى

مع ذلك في برجه العاجي ما لم يتفاعل مع التجربة المتجددة ليصبح خبرة .

وهنا يجب التفرقة بين العلوم الطبيعية كالحساب ، والعلوم السلوكية كالاقتصاد ، فالأولى تقرر قواعد مضبوطة تقول : إننا إذا أدرنا آلة بسرعة كذا في الساعة لمدة كذا ساعات فإنها تخرج لنا في آخر الأمر كذا متراً من القماش ، على حين تقرر الثانية اتجاهات تقريبية تقول : إننا إذا رفعنا ثمن السلعة أو الخدمة فإن من شأن الطلب عليها أن ينخفض . وتأسيساً على هذا تبدو الحاجة ملحة إلى العلم في الحالة الأولى ، وتبدو الحاجة ملحة إلى الخبرة في الحالة الثانية ، لأن الضبط يستغني بنفسه إلى حد كبير عن التجربة ، والتقريب لا يجد بداً في سد نقصه من الاعتماد على بصيرة الخبرة .

لقد بقيت الخبرة مقدمة إذن على العلم ، حتى جاء عصر الذرة وغزو الفضاء وهو عصر لم يكن استمراراً لما سبقه من عصور ، وإنما أصبح حضارة مستقلة متقدمة ، أنشأها العلم ولم يكن للخبرة فيها نصيب كبير .

لقد انتقلت البشرية من عصر الطائرة إلى عصر الصاروخ فوصلت أخيراً إلى القمر ، وهكذا أصبح الوالد عاجزاً عن أن يتابع ابنه لينفعه بخبرته ، ولذلك انعقد منذ سنوات قليلة مؤتمر للهيبين في إحدى العواصم الأوروبية فأوصى الأبناء بأن يهتموا بتعليم آبائهم ليوجدوا جسراً من التفاهم بين الجيلين . وليس أدل من هذا على انتصار العلم على الخبرة .

بين المبادئ والسلوك

ولما انتصر العلم بترتيب النتائج على المقدمات بدا على العرب عزوف عن التسليم بالتقاليد إلا إذا كان لها مبرر واضح من المصلحة الفعلية ، فاصطدمت الأرقام بالغيبيات ، وتحدى الواقع الروحانيات ، وتصدّى رجال الآخرة لرجال الدنيا .. ولا تزال المعارك ناشبة بين الفريقين .

لم يعد الصدق عند العرب منجياً في السياسة والأعمال . ولم تعد النظافة من الإيمان كواقعة منشئة ، وإنما أصبحت ماء نقياً ومنظفات صناعية . ولم يعد التناسل طليقاً كما كان ، وإنما أصبح خاضعاً لقوانين وصفية تحد منه ، ثم تطور مفهوم الجريمة فعبر الشاعر العربي عن ذلك في سخرية حين قال :

قتل أمرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

وهكذا انقلبت المفاهيم بسرعة الصواريخ ، فتغلب العلم على الخبرة ، واصطدم المبدأ بالسلوك . وإذا كان غزو الفضاء يهدف إلى الخير فإن الذرة تهدد أمن العالم . والعروبة بين هذا وذاك مزدوجة الشخصية تقلب أنظارها بين واقعها على الأرض وأملها في السماء ، عسى أن يكتب الله لها الهداية وهي تجري في هذه المظاهرة الصاخبة .

محنة الشهادات عندنا

لقد فقدت الشهادات في العالم العربي مدلولها حتى أصبح بعض الحاصلين على الشهادة الابتدائية لا يجيدون القراءة والكتابة ، وبعض

الحاصلين على البكالوريوس لا يكادون يحسنون قراءة الجريدة باللغة العربية ولا يستطيعون الرجوع إلى كتاب باللغة الإنجليزية ، فهل نستطيع بهذا المستوى أن نقود حملات التنمية ؟

وكلما مرت الأيام زادتني يقيناً بأن التنمية مستحيلة ما دمنا نُعِدّ الإنسان الذي يجيد الكلام عن الشيء ، ولا يعرف الشيء نفسه .

لقد تركنا التكنولوجيا إلى مجرد السرد والمعادلات ، وتركنا العمل إلى النظر ، وتركنا التدريب إلى المؤهلات الدراسية . وإذا كان التعليم عند سوانا وسيلة إلى حياة أحسن ، فهو عندنا ترف ذهني يساعد على التفيهُق والشقشقة وهما كلمتان اخترتهما من لسان العرب لتأكيد ما أقول .

إن استهلاك السلع المعمرة في العالم العربي يسير بنسبة أكبر منه في أي بلد آخر ، فإذا توقفت الساعة لخلل يسير احترنا في العثور على من يصلحها فاضطررنا إلى شراء ساعة أخرى . وإذا توقفت السيارة فعهدنا بها إلى ميكانيكي فقد يعبث بها لأنه مبتدئ فتسوء حالتها .

وإذا احتاجت آلة من آلات المصنع إلى ضبط فالله وحده هو الذي ينقذ صاحب المصنع من براثن المهندسين المؤهلين لكي تبقى له آلته التي دفع فيها آلاف الجنيهات والتي يعتمد عليها في إنتاجه .

لقد فرطنا في الحرف والمهن وأقبلنا على تخريج أهل النظر ، وهو رجوع إلى عهد الإغريق حين كانوا يحترمون الشعراء ورجال القلم ويحتقرون من يعمل بيديه لأن الجسم في نظرهم حيوانيّ دنيء .

من أجل هذا ينال العرب العلم عفواً عن طريق الشهادات ، والمطلوب أن ينالوا الشهادات عفواً عن طريق العلم .

ثقافتنا يجب أن تتحرر

من الباحثين العرب من يخطئون فيصفون ثقافتنا بأنها عربية ، مع أن الثقافة لا موطن لها ولذلك قال النبي الأمي «اطلبوا العلم ولو في الصين» .

إنهم يخلطون بين الثقافة والحضارة . وسأعالج شؤون حضارتنا في فصل آخر ولكنني أدعو إلى تغذية هذه الحضارة بالثقافة : الثقافة الغربية والشرقية ، الثقافة القديمة والحديثة ، الثقافة الأدبية والفنية ، الثقافة النظرية والتطبيقية .

إننا لا نستطيع أن نستغني بالشعر والقصص والأدب عن التكنولوجيا ، ولا بالزراعة عن الصناعة ، فصحفنا وكتبنا تطبعان على آلات مستوردة ، وورقهما وحبرهما مصنوعان في الخارج ، وأجهزة الراديو والتليفزيون التي تشكل حياتنا اليوم مستوردة من الغرب ، بل ان اللبن الذي يتغذى عليه ابناؤنا يجيء لهم من الغرب . كيف اذن نستطيع أن نتقوقع في ثقافتنا ونستغني بما عندنا منها عما وصل إليه سوانا ؟

وإذا كان لا بد لنا من التعامل مع الغرب فكيف جاز للرئيس الراحل جمال عبد الناصر وللرئيس معمر القذافي أن يشيرا بالتقليل من تعلم اللغة الإنجليزية وقد قال الرسول «من تعلم لغة قوم أمن شرهم» .

إنني لا أدعو للتنكر للغتنا ، ولكنني أدعو معها لتعلم الإنجليزية والفرنسية والألمانية والعبرية . وإذا كانت العربية لم تصبح لغة الحديث بين الشعوب الغربية فلا أقل من أن تبقى لغة التفاهم والكتابة . ومن أجل ذلك أدعو إلى تبسيطها .

أدعو إلى حذف نون النسوة والألف بعد واو الجماعة ، أدعو إلى أن نكتب الكلمة كما ننطقها فلا نكتب « ياسين » مرة بالألف ومرة بغيرها . ولا يصح الاحتجاج على ذلك بأن اللغة العربية هي لغة القرآن فنحن نعترف بإعجازه فلماذا نحاكيه ؟ انه سيبقى هادياً في قداسته ولكن أسلوبنا اليوم يختلف عن اسلوبه وكتابتنا اختلفت عن كتابته فلنعترف بهذا الواقع الذي لا ينقص من إيماننا كي نسير بدنيانا إلى حياة أفضل .

إنني أتحدى أعضاء المجامع اللغوية أن يقف أحدهم في حفل عام فيخاطب جمعاً من السيدات بنون النسوة لمدة عشر دقائق دون أن يخطئ في كل دقيقة بضع مرات !

وكتب الأطفال عندنا لا تؤدي مهمتها على الوجه الأكمل لأنها تحرص على سلامة اللغة وهي أجنبية بالنسبة لهم فتصبح اللغة قيداً على قدرتهم في تحصيل المعارف الاجتماعية والعلمية ولذلك نجد الأعمار العقلية لأطفالنا متخلفة عن أعمارهم الزمنية .

ثم إن الاختراعات الحديثة لا أسماء لها باللغة العربية فلا مناص من استخدام اللفظ الأجنبي ، والحل العملي هو أن يطرّق هذا اللفظ ليصبح جرسه عربياً قابلاً للاعراب . إن الترمواي يصبح تراماً والتليفزيون يصبح تلفازاً وهكذا يحل النحت محل الترجمة .

وأسماء الأشخاص لا ينبغي أن تكون قابلة للاعراب بل تبقى ساكنة فلا يقال طه حسينٍ وذكرت شوقياً وتحدثت عن سعد زغلولٍ إلى غير ذلك من التجهيلات .

إن في واقعنا المعاصر أزمة في التغيير . فالعرب يفضلون التأمل عن

العمل فيبدأون بنظرية مسبّقة ثم يفرضونها على الواقع ، وعليه أن يتكيف معها .

ولن ينهض العرب من اليوم إلى سنة ٢٠٠٠ ما لم يغيروا من هذه النظرة .

ترجمة العلوم الغربية

يميل المؤلفون العرب إلى الكتابة في الدين والتاريخ والتراث وسير الخالدين والمسرحيات والسياسة والشعر والقصص . ومنهم من يكتب في علم النفس والعلوم الاجتماعية والفلسفة . أما العلوم الطبيعية والفنون الجميلة والموسيقى والموسوعات والمراجع والهوايات والحرف فلم يصدر فيها إلا القليل .

وبعد القرآن الكريم وكتب التفسير من حيث الشيوع تجيء مؤلفات الطبري والشريف الرضي وابن المقفع وابن سينا وابن رشد وابن خلدون والغزالي وابن قتيبة والف ليلة وليلة وقصص عنترة والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن والزير سالم وأبو زيد الهلالي ... الخ

ثم يجيء من آثار المحدثين كتب الجبرتي والمويلحي ورفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وفرح انطون والمنفلوطي وقاسم أمين ومحمد حسين هيكل والعقاد وطه حسين وإيليا أبو ماضي والزهاوي والشابي .. الخ . وتجيء آثار الأدباء الأحياء وهم أغنياء عن التعريف .

ولعل منشأ إقبال الناشرين على كتب التراث انهم لا يدفعون عنها

حقوق تأليف بعد أن مضى عليها أكثر من خمسين عاماً ، كما أن القراء يحبون القراءة في هذه الكتب واقتناءها في مكتباتهم .

هذا عن الكتب المؤلفة ، أما الكتب المترجمة فهي للأسف قليلة جداً فضلاً عن أن الذي ترجم منها لا يخضع لتخطيط منهجي .

وإذا عرفنا أن الولايات المتحدة وحدها تصدر في كل عام أكثر من عشرين ألف كتاب جديد ، وأكثر من خمسمائة مليون نسخة من الطبعات الشعبية تصورنا كم يصدر في العالم المتحضر من مئات الألوف من الأبحاث الجديدة . وقد كان علينا أن نستفيد منها بالترجمة لنلاحق ركب الحضارة والتقدم .

إن كبار الكتاب العرب لا يزالون يعتقدون أن الترجمة دون التأليف مكانة . فالفضل يرجع للمؤلف مرتين : مرة عند التأليف ومرة عند الترجمة . أما المترجم فهو ظل المؤلف ، والجزاء الذي يلقاه قليل بالقياس إليه .

إنني أدعو إلى تشجيع القادرين على ترجمة الانتاج العالمي المعاصر والتراث الكلاسيكي منذ عصر النهضة . أدعو إلى ترجمة بعض المعاجم المنتقاة والموسوعات والأطالس ، وإلى ترجمة الكتب التي تساعد على اتقان الحرف وتحسين الإنتاج ، وتلك صرخة أوجهها إلى دور النشر الكبرى وإلى الحكومات العربية .

الفصل الرابع

الكتاب العربي
أداة التفاعل الثقافي بين العرب

من الأقوال المأثورة أن أول العلم الصمت ، والثاني الاستماع ، والثالث الحفظ ، والرابع العقل ، وخامس مراتبه النشر . وإذا نظرنا إلى الصمت كشرط لازم للاستماع صح القول بأن أول العلم الاستماع .

وقد كان الاستماع وسيلة العلم الوحيدة قبل الكتاب ، ثم جاء الكتاب حداً فاصلاً بين التاريخ وما قبل التاريخ . بين الحضارة وما قبل الحضارة . ولو لم يحرق حكام العرب كتب ابن رشد ، بل لو قام من بيننا من تابع أبحاث الخوارزمي وابن الهيثم وجابر بن حيان وابن خلدون وغيرهم لكان للعرب في العلوم شأن آخر .

ولقد نزل القرآن بفعل أمر هو « اقرأ » فكانت هذه الكلمة أول ما خوطب به النبي الكريم والناس . والقراءة تتمثل أفقياً في الصحافة ، وتتمثل رأسياً في الكتاب ، فالصحافة تعالج موضوعات كثيرة في عدد واحد ، على حين يتعمق الكتاب موضوعاً واحداً فيستوفيه بحثاً .

وفي الكتاب قال العقاد :

إني أحب الكتاب لأن حياة واحدة لا تكفيني . ومهما يأكل الانسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة . ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد . ومهما يتنقل في البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل في مكانين . ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد .

وقال شوقي :

تجد الكتب على النقد كما   تجد الإخوان صُدقاً وكذاباً
فتخيرها كما تختارهم   وادخر في الصحب والكتب اللبابا

اقتناء الكتاب استثمار

القراءة تنمي الفرد ، والفرد ينمي المجتمع . ولن تكون قراءة معلمة بغير كتاب ، فالكتاب هو جهاز الاستقبال الذي يفتحه القارئ على الدنيا فيغترف بعينيه ما فيها من جديد . والفرد الذي لا يقرأ يوقف التيار الفكري الذي يربطه بالعالم ، ويحكم على نفسه بالعزلة ، وعلى عقله بالجمود ، وعلى ملكاته بالتحجر .

إن القراءة هي التي علمت العرب كيف يحلقون ذقونهم بالشفرات ، وينظفون أسنانهم بالفرشة والمعجون ، ويقطرون الدواء في أعينهم إذا أصابها التهاب أو ألمّ بها غبار ، وهي أيضاً التي نشرت بينهم عادات التدخين وشرب الخمر وسباق الخيل وغشيان الملاهي . لقد أصبحت القراءة معلم الجمهور الأول ، حتى ليتعذر تصور الحياة بدونها . إن الحكومات لا تستطيع أن تحصل من شعوبها على التلبية المطلوبة

إذا لم تكن هذه الشعوب قارئة ، حتى ليصح القول بأن تكوين الدول صعب التصور بغير قراءة .

والذي يقرأ الكتاب يقوم بعملية لازمة لزيادة مقدرته الشخصية على حل مشاكل الحياة . وهو يضفي من كفايته على تحسين عمله من التقدير ما يفتح له أبواب الحياة .

إن الكتاب يمتاز في هذا على مدرس الفصل ، فالكتاب يعلم بالجملة ، والمدرس يعلم بالقطاعي . والكتاب لا يفرض نفسه على قارئه وإنما يضع نفسه تحت تصرفه كلما اشتاق إليه ، في حين يحدد المدرس موضوع الدرس ووقته ومكانه ، ثم يصبه على طريقته الخاصة في آذان التلاميذ ، ويفرض عليهم الإنصات ساعة من الزمان أو أقل ، وهم جلوس على مقاعد خشبية .

وكما يكون البيع بالجملة أرخص ، تكون المعرفة بالكتاب أرخص منها بالتدريس . وإذا كانت المدرسة لا تستغني عن الكتاب ، فإن الكتاب قد يستغني عنها . وكبار المفكرين من أمثال العقاد وكامل الشناوي لم يستمدوا من المدرسة إلا أقل القليل ، ثم بقي الكتاب في أيديهم يؤاخيهم ويشترك في أفراحهم ومآسيهم ، بل يدخل معهم إلى بيوتهم ومخادعهم ، وبالصداقة التي تنشأ بينه وبينهم وتترعرع على طول الزمان يتغلغل الكتاب برسالته في أعماق نفوسهم فيسير في خباياها ويغير في مكنونها .

ثم أصبح للكتاب إلى جانب قيمته الثقافية ، قيمة عملية : فمنه نتعلم كيف نسعف المريض ، ونصلح السيارة ، ونربي الطفل ، وننظم المصنع . إن الكتاب هو الذي يأخذ بأيدينا اليوم إلى إنتاج أكبر

وحياة أفضل ، وإن كان الكاسيت والراديو والتليفزيون وغيرها من الوسائل المسموعة قد بدأت تؤدي دورها المقدور في كل ذلك .

المراحل الأربع لقراءة الكتاب

أظهرت الأبحاث التي أجريت أن تحصيلات التلاميذ من القراءة تختلف اختلافاً كبيراً . فبعضهم يصل في المرحلة الأولى إلى ما لا يصل إليه سواه إلا في المرحلة الثانية أو التي بعدها .

والمرحلة الأولى هي التي يبدأ فيها الطفل في تكوين ملكاته العقلية والاجتماعية والعاطفية واللغوية ، حتى إذا وصل في عمره إلى ست سنوات بدأ يهتم بالكتاب والكلمة المطبوعة فيدخل المرحلة الثانية .

وفي هذه المرحلة يتعرف بنظره على نحو ثلثمائة كلمة ، ويزداد اهتمامه بالقراءة لأنه يبدأ يفكر فيما يقرأ . ومع تزايد سنه يتعلم كيف يستقل بنفسه في القراءة فيدخل المرحلة الثالثة .

وفي هذه المرحلة تزداد سرعته في القراءة الصامتة ، وفي فهم ما يقرأ ، ويزداد عدد الكلمات التي يتعرف عليها بنظره إلى ألف وخمسمائة أو ألفي كلمة ، ثم يتعلم القراءة بصوت مسموع ويكتسب المهارات اللازمة للتحدث بما يجمعه من قراءاته ، كما يستخدم القراءة لإشباع حب الاستطلاع في نفسه ، ولجني المعلومات من العلوم المختلفة .

بقيت المرحلة الرابعة ومن خصائصها أن تكون القراءة باهتمام أكبر وتذوق أحسن . وخلال هذه المرحلة تنقّي القدرات السابقة وترهف ويتسع مدى التعرف على الكلمات والمعاني ، وتنمو القدرة على التفسير . وبزيادة الحصيلة من المعرفة تتأكد القدرة على التقييم

الصحيح ، وعلى الاستفادة من القراءة في تكييف الاتجاهات والسلوك .
إن القراءة في هذه المرحلة تزداد اتساعاً وعمقاً ، فيصبح القارئ ناضجاً mature كما يقول William Gray .

الكتاب واهتمام الأطفال والبالغين به

أثبتت الدراسات أن الأطفال يظهرون في مدارجهم الأولى اهتماماً بالحيوانات وميلاً إلى الحكايات عن الأطفال الآخرين الذين هم في سنهم . وقبل المراهقة يظهر الأولاد ميلاً إلى قراءة المغامرات وطرق القيام بها والهوايات وعبادة الأبطال . أما البنات فيظهرن اهتماماً بالبيت والحياة المنزلية . وبعضهن يملن إلى قراءة المغامرات . وقد لوحظ أن البنات يحببن كتب الأولاد ، على حين أن الأولاد لا يحبون كتب البنات .

وفي سن المراهقة يبدي الأولاد اهتماماً بالمجهول وبالألعاب ونواحي الترفيه ، في حين تقبل البنات على الروايات الغرامية والقصص التي تعالج مشاكلهن في سن المراهقة .

أما ميول البالغين فهي متنوعة ومعقدة . وقد ذكر Dauglas Waples و Ralf Tyler أنهما بحثا الميول للقراءة عند البالغين على مستوى دولي – فوجدا أنها تختلف باختلاف السن والبيئة والوظيفة وعدد سنوات الدراسة ، ولم تتفق الميول إلا في اتجاهين اثنين هما الاتجاهات الدولية والنظافة الشخصية . كما لاحظ أن الوصول إلى المواد المقروءة في سهولة ويسر من أهم دوافع الاقبال عليها ، ولذلك تقرأ الجرائد والمجلات أكثر مما تقرأ الكتب .

حقوق التأليف

لم تكن حقوق المؤلفين في العالم العربي منظمة بقوانين إلى عهد قريب ، ولذلك كانت الأحكام في الملكية الأدبية تصدر استناداً إلى قواعد العدل ، مع أن الأمم المتحدة أصدرت الاعلان العالمي لحقوق الانسان في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ ونصت في مادته السابعة والعشرين على أن لكل فرد الحق في حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة على إنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني . ومعاهدة برن الدولية لحماية حقوق التأليف أبرمت عام ١٨٨٦ ثم عدلت عدة مرات كان آخرها في استكهولم عام ١٩٦٧ . وهيئة اليونسكو نظمت عقد اتفاق دولي في جنيف في ٦ سبتمبر ١٩٥٢ عن حقوق التأليف .

وقد ظهر في يوليو عام ١٩٦٧ اتجاه معارض لهذه الاتجاهات جميعاً حين وضع المؤتمر الدبلوماسي الذي عقد في استكهولم بروتوكولاً يحد من حقوق النشر لصالح الدول النامية فيجيز إنقاص مدة حماية حقوق المؤلف ، ويتوسع في الحالات التي يجوز فيها لهذه الدول أن تترجم وتنشر المصنفات الأجنبية مراعاة لاحتياجات التعليم والثقافة دون إذن المؤلف والناشر .

ومهما يكن من شيء فإن القوانين الحالية تكفل للمؤلف مبادئ ثلاثة :

أولها : أن يكون حراً في التعبير عن رأيه في حدود القانون ، فلا يملي الناشر عليه فكرة معينة أو يطلب منه نتيجة محددة . ولو عهد الناشر إلى مؤلف بوضع كتاب معين ثم وجده دون

المستوى الذي كان يتوقعه فلا يجوز له أن يرجع في اتفاقه معه .

ثانيها – إن للمؤلف وحده الحق في تقرير نشر مصنفه وفي تعيين طريقة هذا البشر .

ثالثها – إن انقضاء حق المؤلف في الاستغلال المادي بعد مرور خمسين عاماً لا يعني انقضاء حقه الأدبي وهو نسبة مؤلفه إليه .

النشر عندنا وعند سوانا

درجت دور النشر على أن تتعامل مع المؤلفين على أحد الأسس الآتية :

١ – تعطيه مبلغاً محدداً عن الطبعة الأولى ومبلغاً آخر عن كل طبعة ثانية .

٢ – تعطيه نسبة من الثمن المنشور على غلاف الكتاب مضروبة في عدد النسخ المطبوعة .

٣ – تعطيه نسبة أكبر من ثمن الغلاف مضروبة في عدد النسخ المبيعة في كل سنة .

٤ – تقسم معه فائض الكتاب بعد نفاد النسخ مع تحديد البنود التي تتألف منها المصاريف .

ويقع الخلاف عادة بين المؤلف والناشر بسبب أن الأول يقدر كتابه بمقدار ما فيه من مادة علمية ، على حين يقدره الثاني بمقدار

ما ينتظر له من رواج . وقد يكون للمؤلف قيمة ذاتية كبيرة ، ولكن قيمته السوقية موضع نظر !

والناشرون في أوروبا وأمريكا يتجهون إلى التخصص . فمنهم من يقتصر على كتب الأطفال . ومنهم من ينتج الكتب الدراسية . ومنهم من لا يعمل إلا في الكتب الفنية والجامعية . أما الناشرون العرب فلم يصلوا بعد إلى هذا المستوى . وقد تنشر دار في القاهرة كتاباً من كتب التراث أو تترجم مؤلفا أجنبياً ، ثم يتبين أن الكتاب نفسه قد صدر في السنة نفسها عن دار في بيروت أو في بغداد ، وذلك لانعدام مرجع ينشر الكتب الصادرة في العالم العربي بعد تصنيفها بحسب موضوعاتها .

وكذلك تتخصص دور النشر العالمية في تحديد الفراغات العلمية والثقافية ، وفي فحص الموضوعات المعروضة واختيار الأصلح من بينها والتعاقد مع مؤلفيها ، ثم ترسل المخطوطات والصور والرسوم إلى مطابع متخصصة ، فإذا صدر الكتاب تسلمته شركات مستقلة للتوزيع . أما دور النشر العربية فلا يزال معظمها يتولى كل شيء ، بل إن من صغارها ما قد يتولى التأليف !

ومن أسف أن دور النشر لا تقبل على كتب العلوم الطبيعية وهي معذورة في ذلك فقد ثبت أن القراء العرب يفضلون حتى الآن الإطلاع على هذه العلوم بلغاتها الأصلية .

الكتاب موضوع وشكل

الكتاب شكل وموضوع والشكل فيه لا يقل أهمية في الرواج عن

موضوعه . وإذا كان الكتاب رسالة فقد أصبح اليوم صناعة تحمل هذه الرسالة . إنه لا يؤدي رسالته إلا حين تمر عيون القارئ على سطوره . فعلى الناشر أن ينتجه في شكل مشوق يجذب إليه أكبر عدد من القراء ، وإلا فإنه يخرج من ساحة المطابع إلى ظلمات المخازن . !

الكتاب ورق ينتقى ليناسب عملية الطباعة ، وحبر يختار ليجف بسرعة أو على مهل ، وألوان تصمم ليتم فصلها عند التصوير ويعاد تركيبها عند الطبع ، وبنط يتناسب مع القطع والهوامش وعمر القارئ وثقافته ، وغلاف يتمشى مع ثمن الكتاب وعدد صفحاته .

لقد كانت كتب الأطفال ساكنة Static . فأصبح كثير منها حركياً Dynamic . ومنها ما يخرج قطعاً موسيقية أو أصواتاً للطيور أو الحيوانات . وقد أصبحت الكتب الطبية التي تدخل المشرحة تطبع على القماش أو اللدائن أو على الورق بعد معالجة خاصة لا تتأثر بالرطوبة أو الأحماض . والكتب التعليمية اليوم ذات جيوب فيها اسطوانة أو كاسيت يديرها القارئ على «ريكوردر» وهو يطالع فيتلقى الثقافة بعينيه وأذنيه ليعمق الأثر في نفسه . وقد انتشرت هذه الطريقة في تعليم اللغات بصفة خاصة .

وصف الأحرف كان باليد فأصبح تصويرياً بعد أن دخل العقل الايلكتروني فيه ، فارتفع عدد الأسطر من مائة في الساعة إلى عشرات الألوف .

وألواح الزنك أو الألومنيوم تأتي اليوم من المصنع محسسة جاهزة لطباعة الأوفست فيتم نقل الصور عليها في بضع دقائق بعد أن كان

يستغرق ساعات . وفصل الألوان يتم اليوم ايلكترونياً بعد أن كان يتم بالعين المجردة .

وهناك من آلات الطرْق والتثقيب والورنشة والتشكيل ما يجعل الطباعة صناعة من صناعات التجميل .

وفي التغليف بالورق والتجليد بالقماش أو الريكسين تذهيب وحفر وإبراز وإحاطة الكعب باللوالب ، كل ذلك في تسلسل آلي يحيل اللفّة مـــن الـورق المطبوع إلى نسخ معـــدودة ومرصوصة في الصناديق .

وهكذا أصبح ما يكتبه المؤلف مجرد مادة أولية يصنّعها الرسامون والخطاطون والمهندسون والطابعون ، فيجعلون منها سلعة شهية يتوافر فيها ما يتوافر في سائر السلع من جودة وجمال .

وقد دعا تقدم الطباعة في اسبانيا وايطاليا واليابان إلى أن يفضل بعض الناشرين العرب طبع كتب الأطفال وهي كثيرة الألوان ، والكتب الدراسية وهي كثيرة العدد ، في هذه البلاد ، فتصل على ورق صقيل بألوان أنيقة وبثمن معتدل . إن هذا الحال يهدر صناعة الطباعة في العالم العربي ، ولا عاصم منه إلا أن نجدد آلاتنا وندخل التكنولوجيا الحديثة في كل مجالات الطباعة .

اللّقيا بين الكتاب والقارئ

الكتاب – كما قدمت – لا يؤدي مهمته الثقافية إلا إذا تمت اللقيا بينه وبين القارئ ، فالذين ينشرون الكتب لقيمتها العلمية فقط دون استيثاق من أن لها حداً أدنى من القراء المرتقبين ، ينفقون أموالهم

وجهودهم في غير طائل . إنهم يستعلون على الجمهور فيتجاهلهم الجمهور ، وتكون النتيجة وبالا على المؤلفين والناشرين جميعاً . ومن الناحية الأخرى فإن بعض المؤلفين ينزلون بمادتهم إلى مستوى غير لائق فيتملقون غرائز الجنس وينشرون باسم الدين خرافات قد تكون طريفة ولكنها ليست منه .

لا بد من دراسة سوق الكتاب إذن قبل إصداره ، وذلك بالاجابة على هذه الأسئلة :

كم من الناس في كل سوق عربي أميون وكم منهم ألفبائيون ؟

كم منهم يحملون شهادات متوسطة ، وكم منهم يحملون مؤهلات عالية ؟

كم منهم يقع في كل شريحة من شرائح الدخل ؟

كم منهم رجال وكم منهم نساء ؟

كم منهم في سن الطفولة ، وكم في سن الشباب ، وكم في سن الشيوخ ؟

كم منهم في كل مهنة من المهن والحرف ؟

إلى غير ذلك من الخصائص التي تساعد على تقدير القراء المرتقبين لكل كتاب بالذات .

بحث ميداني قديم

وقد أجرى المركز العربي للبحوث والإدارة (أراك) بالتعاون مع الجامعة الأمريكية بالقاهرة في سنة ١٩٦٦ بحثاً ميدانياً في مصر عن الكتب والصحف كما يراها المشترون ظهرت فيه الاتجاهات

الآتية التي لا أظن أنها تغيرت كثيراً :

١ – إن أكثر الموضوعات انتشاراً هي الموضوعات الدينية وتليها الجنسية . وأقل الموضوعات انتشاراً هي العلمية .

٢ – إن أكثر الطبقات إقبالاً على القراءة هي المتوسطة التي يروح دخلها بين ٣٥ ، ٦٠ جنيهاً في الشهر (بأسعار ذلك العام) .

٣ – إن أكثر الناس قراءة هم مدرسو التعليم الثانوي ويليهم طلاب الجامعات . أما المتخصصون من الأطباء والمهندسين والكيميائيين وغيرهم فتقل قراءتهم لكتب الثقافة العامة لأنهم يفضلون التفرغ لنواحي تخصصاتهم .

٤ – إن الأعزبين يقرءون أكثر من المتزوجين على خلاف ما كان متوقعاً .

٥ – إن سن القراءة الغالبة هي ما بين العشرين والخمسين .

ولكن ماذا عن العالم العربي حتى سنة ٢٠٠٠ ؟

أولاً – إذا أردنا ترويج الكتاب في كل بلد عربي فلا بد أن نعمل على زيادة منافذ التوزيع فيباع الكتاب في المكتبات والأكشاك والقطارات والأسواق المركزية والمخازن الكبرى ومع باعة الصحف ، ولا بد أن ينتقل إلى القارئ فيعرض نفسه عليه في القرى والدساكر وقرب الملاهي والمطاعم والمحطات ، ولا بد أن تقوم له معارض سنوية في كل عاصمة ، ومعارض متنقلة بين المدن تنقل إلى الناس أحدث ما صدر في كل ميدان من ميادين المعرفة .

ثانيا – على البلاد العربية أن تتبادل ثقافاتها مهما يكن بينها من اختلاف سياسي ولن يكون ذلك إلا بتيسير تصدير الكتاب واستيراده وتخفيف قيود العملة والرقابة على المطبوعات ، وتخفيض ثمن الاعلان عن الكتب في الصحف والإذاعة والتليفزيون .

ثالثاً – إيقاف موجة التقليد التي اجتاحت العالم العربي وأصبحت تهدر صناعة النشر فيه . فبعد تقدم طباعة الأوفست أصبح من السهل على قراصنة الكتاب أن يصوروه ثم ينقلوه على الألواح المحسسة ليبدأوا في طبعه على الفور . والمقلد يمتاز هكذا على الناشر الأصلي بما يلي :

١ – ينتقي أحسن الكتب الرائجة فهو يغامر دائماً على جوادٍ رابح .
٢ – لا يدفع للمؤلف حق التأليف وهو يدور عادة حول ١٥ ٪ من ثمن الغلاف .
٣ – يوفر تكاليف الصف والرسم والتصوير والتنضيد والتصحيح
٤ – يستفيد من السمعة القائمة للكتاب المقلد وما أنفق عليه من إعلانات
٥ – يبيع الكتاب بسعر أقل – للأسباب المتقدمة – ويمنح أصحاب المكتبات هامشاً أعلى من الربح فيضمن توزيعاً أكبر .

إن اثنين من الدول العربية انضمتا إلى معاهدة برن وهما لبنان وتونس وقد انضمت إليها أخيراً مصر . ولا شك أن انضمام باقي الدول يعزز مكانة المؤلفين العرب ويساعدهم على حفظ حقوقهم في الخارج . ولكن القوانين المحلية في كل بلد عربي

تكفي على الأغلب لمحاربة التقليد لولا أن الاثبات صعب ، فليست العلة إذن في عدم الانضمام لمعاهدة برن ، وإنما العلة في تقاعس الحكومات العربية . ولننتظر ما تفعله في هذا الصدد من اليوم إلى سنة ٢٠٠٠ .

الفصل الخامس

النواحي السلوكية في الإدارة العربية

أجهزتنا الإدارية تتحرك في مشهد يومي صامت يتدافع الناس فيه بالمناكب ، ويتصادمون بالرؤوس . كل فرد يدور بقوة الدفع إلى حيث يريد أو لا يريد ، حتى إذا جاء مكانه في طريق الآخرين عاقهم عن الحركة فداروا من حوله بحثاً عن منفذ ، وداسوا في دورانهم على أقدام الناس ، ثم ينتهي اليوم فيتهالك الجميع على فراشهم وقد بلغ الدوار منهم مبلغه ، وإن كانوا لم يبلغوا هدفاً من أهدافهم . هذا المشهد اليومي الصامت هو البيروقراطية العربية .

وترجع جذورها إلى أن العرب بدءوا حضاراتهم بالصيد أو الزراعة ، ولم يكونوا يعتمدون في ذلك على نظم يضعونها ، بل كانوا يعتمدون على الملاحظة الشخصية والعناية الالهية . فإذا هلك المحصول لم يعملوا على تقصي الأسباب . بل تركوا الأمر لله الواحد القهار . وبذلك ينجون من تهمة الاهمال ، ولا يتعبون أنفسهم في البحث عن وسيلة لتفادي هلاك المحصول مرة أخرى .

الإدارة الورقية

ولما دخل العرب المكاتب لم يكن التعليم يؤهلهم للأعمال الادارية ، والفنية وإنما كانت مهمته مقصورة على الأعمال الكتابية فانتشرت الإدارة الورقية في العالم العربي وهي إدارة الاستيفاءات ، فيحال الأمر من مكتب إلى مكتب ، ومن جهة إلى أخرى . ويظل الموظفون يكتبون المذكرات ويطلبون تقديم الاستمارات حتى تتضخم الأضابير وهي تذهب وتجيء ، وتلف وتدور ، حتى يفرغ صبر صاحب المصلحة ، وقد تضيع منه الفرصة التي يطلب من أجلها ما يطلب .

إن هناك عبارات روتينية تعرفها الدوائر الحكومية وأشباهها من المؤسسات الكبرى . ومن هذه العبارات «إلى إدارة الحسابات لإجراء اللازم» واللازم هذا غير معروف . ومنها «إلى الشؤون القانونية لبحث الموضوع» والموضوع المطلوب بحثه غير محدد المعالم . ومنها «إلى إدارة الإنتاج للمراجعة» مع أن المذكرة قد تكون صادرة أصلاً من إدارة الإنتاج . وقد رأى الكاتب مرة تأشيرة لمدير عربي هذا نصها «موافق بتاتاً» فاحتار بين تناقض الكلمتين .

بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة

من العبث أن نطالب العامل بأن يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الشخصية . فهذا مطلب يقدم للأنبياء والملائكة . وكل ما يمكن أن نرجوه منه هو أن يسعى في تصرفاته إلى التوفيق بين مصلحته ومصلحة المؤسسة التي يعمل فيها . وقد قال لي صديق يوماً إنه تمكن من شحن ما يزيد على حقه في طائرة أجنبية مقابل جعل دفعه للقائم على الأمر ،

فلما أظهرت عجبي من أن يكون هذا الفساد في شركة كبيرة رد قائلاً إن كل الفرق بين هذه الشركة وشركة مبتدئة هو أن موظف الأولى يحسب حمولة الطائرة قبل أن يجامل ويقبل « الهدية » فإن وجد في الحمولة باقياً سمح بالمجاملة . أما موظف الشركة المبتدئة فقد يقبض ثمن الخيانة ولو عرض طائرته للسقوط . ولست بايراد هذه الحكاية أوافق على ما فعله موظف الشركة الكبيرة ، ولكني أجسّد الفرق بين خائن وخائن ، وأبين أن الناس مشغولون أبداً بما يعود على ذواتهم من كسب مادي أو معنوي ، وأن الإنسان الفطن – حتى بين السارقين – هو الذي يحقق مصلحته ولا ينسى مصلحة المجموع .

بين اليمين واليسار

من شأن الإدارة في النظام الرأسمالي أن تعتمد على المصلحة الخاصة والملاحظة الشخصية فتقلل الزيادة في العمالة ، أما في النظام الاشتراكي فالمقياس الأول للنجاح هو العمالة الكاملة والعدالة الاجتماعية . ومن شأن هذا الاتجاه أن يشد القطاع العام إلى الدولة فيزحف النظام الحكومي على الشركات والمؤسسات بما فيه من لوائح الضبط والملاحقة والتضييق على المدير في التصرف . ولا عاصم من الوقوع في البيروقراطية إلا ارهاف النظام الإداري ليحل محل الادارة الشخصية في النظام الرأسمالي .

ومهما يكن النظام السياسي الذي يعمل فيه القطر العربي فإن هناك خلاصات إدارية عليه أن يعمل بها وأنا أركزها في هذه الفقرات :

عموميات :

* لا بد أن يعرف كل عامل إلى من يتجه بسؤاله أو باقتراحه أو بشكواه .
* لا بد أن تحدد الصلاحيات بين العاملين بحيث لا يطغى اختصاص على اختصاص ، ولا يبقى اختصاص دون مختص .
* مهمة الادارة أن تهيئ النجاح لكل عامل ، ومهمة كل عامل أن يزيد هذا النجاح لمن يأتي بعده .
* الادارة ترعى العامل كإنسان ، ثم تحاسبه بعد ذلك كعامل .
* لا بد أن نسوّي في الفرص بين العاملين ، ثم نفسح لهم جميعاً فيسبق الأذكى عقلاً والأعلى كفاية . أما المساواة بين الناس في كل شيء فهي متعذرة التحقيق .
* الحق عادة وسط بين باطلين . والمناقشة تعاون للوصول إلى هذا الحق .
* الانصات مساهمة إيجابية في البحث عن الحلول .
* لا بد أن نعترف بالخطأ لكي نضعه في الماضي ، ونضع الصحيح في الحاضر ، والتخطيط في المستقبل .
* إذا كانت الصداقة حقاً فإن الزمالة واجب . ولذلك يجب أن يتعاون العاملون في خدمة المؤسسة بغض النظر عن علاقاتهم الشخصية .
* المدير يستطيع أن يقلّم الأشجار بإرادته المنفردة ، ولكن هيهات أن يروض العاملين معه بدون التجاوب المشترك .
* الإرادة غير العناد . فالإرادة منهاج والعناد افتعال .

* القائد غير الرئيس ، فالأول يحترم لشخصه ، والثاني لا يهاب إلا لمنصبه .

في المصنع :

* الصيانة الوقائية للآلات ترفع إنتاجها ، لأنها تنزل بمرات توقفها إلى الحد الأدنى .
* الخطة الشهرية للإنتاج تحارب الضائع من الوقت ، فهي تهيئ لكل آلة ما يناسبها في الوقت المناسب .
* نقابة العاملين لا بد أن تعرف أن مهمتها الأولى هي التعاون مع الإدارة في زيادة الإنتاج ، لأن الإنتاج هو وعاء الحقوق .

في الحسابات :

* الرقم الصحيح في الوقت المناسب هو أداة القرار الصحيح .
* إدارة الحسابات وسيلة للضبط والمتابعة ، وليست سلطة للتعطيل .
* المحاسب يرى ولا يسمع : يرى المستندات ولا يسمع الأقاويل .

في البيع :

* العميل دائماً على حق ، ولذلك يجب أن نسعى إليه إذا ابتعد .
* العميل أغلى من الصفقة ، ولذلك نتمسك بالصدق في البيع له أو الشراء منه .
* البيع للعملاء ليس شطارة . إنه خدمة .
* لا بد أن نؤمن بالمنافسة البناءة ، وأن نسعد بالمنافس الناجح ونتعلم منه .

* تحصيل ما لنا عند عملائنا ودفع ما علينا لهم بانتظام هو خير طريقة للمحافظة على صداقتهم .
* يجب أن نشارك عملاءنا في مناسباتهم باعتبارهم أعضاء معنا في أسرة المؤسسة .
* لا بد أن نبحث عن العملاء ، وأن نذهب إليهم ولا ننتظرهم حتى يجيئوا إلينا .

هذه هي المبادئ السلوكية التي يجب أن تعمل المؤسسات العربية على تحقيقها ، ولست أعتقد أنها محتاجة في ذلك إلى عشرين سنة تصل بها إلى سنة ٢٠٠٠ .

العلاقات العامة

العلاقات العامة هي علم الحياة وقد يبدو هذا الكلام غريباً لأول وهلة ولكنه صحيح . فإن العلاقات العامة هي ما بين كل عربي وأخيه . تدس في أعماقهم جميعاً انطباعات لا يعرفون مأتاها ولكنهم يسلمون بصحتها ، حتى لقد أصبحت هي الأصل والعلوم السلوكية هي التطبيق .

إن العلاقات العامة بين المعلم والتلميذ « تربية » ، وهي بين المنتج والمستهلك « إعلان » ، وهي بين المنتج والمحتاج « بيع » ، وهي بين الحاكم والشعب « سياسة » ، وهي بين السفير والدولة التي يعمل فيها « دبلوماسية » ، وهي بين الطبيب النفساني ومرضاه « علم نفس » ، وهي بين الناس جميعاً « أتيكيت » .

علاقة الادارة بالعاملين

كان من أثر التضخم في حجم المشروعات بعد الثورة الصناعية والميكنة أن استقلت الإدارة بنفسها عن رأس المال وحلّت النظم الادارية والحسابية والمالية محل الملاحظة الشخصية ، واقتضت التجمعات الكبيرة للعاملين إيجاد تفاهم بينهم أساسه الرضى عن حالهم وعن معاملة المشرفين لهم . فهم كمن يعزفون على آلات مختلفة ، ولكنهم لكي يرسلوا أنغاماً متناسقة لا بد أن يعملوا على نوتة واحدة . ولو سار كل منهم على هواه لأصبحت موسيقاهم نشازاً .

وبتعبير أوروبي هم يتحركون في حلبة للرقص ، وعلى كل منهم أن يتحرك مع الموسيقى – وهي تمثل السياسة العامة – وأن يرعى الأصول فلا يدوس على أقدام الراقصين والراقصات في الحلبة .

ولتحقيق هذا التفاهم لا بد أن يفهم كل عامل سياسة المنشأة التي يعمل فيها . ومن حقه أن يعرف بالتحديد الهدف الذي من أجله يقوم بالعمل الذي يكلف به ولكي ندرك أهمية هذه المعرفة نسوق مثلاً يتكرر في كل يوم : فلو سار أحدنا ليبلغ غاية محددة كقنطرة أو متحف أو حديقة فإن هذه الغاية تشده فيجدّ في سيره حتى يصل إليها . أما إذا خرج على غير هدى ليمارس رياضة المشي فإن الملل يدركه بعد قليل ويشعر بالتعب .

ولا بد أن يقتنع العاملون بأن جهودهم مقدرة فإن في نفوسهم مركباً اسمه « أنا » وعلى المدير أن يحسب حسابه ليعد كل منهم نفسه مسؤولاً عن المنشأة . وتحقيقاً لذلك لا يصح أن يحتكر المدير فضل

النجاح لنفسه ، وإنما يرجع منه قسطاً كبيراً لمعاونيه .

وحبذا لو اقتنع العاملون بأن المدير يهتم شخصياً بمصالحهم ومشاكلهم ليقوم التعاطف بينه وبينهم . ومن ذلك أن يعود مريضهم ويعزي في مصابهم ويهنئهم في المناسبات السعيدة . وقد لا يكون هذا الاهتمام مقصوراً على أشخاص العاملين بل يتعداهم إلى ذويهم فيسعى المدير – كلما وسعه ذلك – إلى مساعدة العامل على تهيئة مكان لابنته الصغيرة في المدرسة ، ويقرضه إذا احتاج في محنة .

وأخيراً لا بد من احساس العاملين بأنهم يشاركون في اتخاذ القرارت ، فإذا عقدت لجنة لبحث موضوع فإن رئيسها يكون آخر المتكلمين . إنه يدير الجلسة والحوار فيبدأ بأصغر الأعضاء مركزاً ، ثم بمن يكبره وهكذا ، حتى إذا انتهى الجميع من ابداء آرائهم راح يلخصها ليبرهن على أنه استوعبها ، ثم يبدي ما يعنّ له من تعقيبات على كل موضوع بما لا يخل باحترام من تناوله ، وينتزع القرار مما دار في الجلسة ، ثم يشكر الحاضرين قبل أن يعلن فضها .

علاقة الادارة بالعملاء

تحرص المنشآت على أن تبقى صورتها بين عملائها محببة إلى نفوسهم بعيدة عن شبهة الاستغلال . ومن ذلك ما فعلته مؤسسة فورد الأمريكية حين أنشأت Ford foundation للأعمال الخيرية ، وما فعلته مؤسسة روكفلر . ومن المنشآت ما يمنح الجوائز والكؤوس للرياضيين ويقيم المستشفيات والمعاهد العلمية العامة ، ومنها مثل أرامكو ما يصدر صحيفة جيدة الطبع والإخراج تشرح للشعب

السعودي ما تؤديه الشركة له من خدمات .

وتتضح وظيفة العلاقات العامة من تعريف دائرة المعارف البريطانية بأنها مظاهر النشاط المتصلة بتفسير وتحسين العلاقات القائمة بين منظمة أو فرد وبين الجمهور ، كما يتضح من تعريف دائرة المعارف الأمريكية ، بأنها الفن الذي يقوم على التأثير والتعبير ، بشخص أو فكرة أو جماعة ، من أجل أن يعترف بأنها تقوم لخدمة مصالح الجمهور وأنها تستفيد من وراء ذلك .

ومستوى المعيشة يختلف في البلاد العربية ولهذا أثره في مدى تأثير العلاقات العامة فما قيمتها في فقير لا يجد قوت يومه ؟ خير من التودد إلى مشاعره إعطاؤه رغيف عيش . كذلك يؤثر نوع الحكم في نوع العلاقات العامة فمن شأن الحكم الديكتاتوري أن يدعو للانصياع والالتزام في حين يدعو الحكم الديموقراطي إلى التحرر الفكري .

والعاملون في المنشآت الأجنبية يلاحظون العلاقات العامة حين يمثلون منشآتهم في العالم العربي ، فهم يأكلون بأيديهم إذا وجدوا في استخدام الشوكة والسكين استعلاء . وهم يعرفون أن الدعوة إذا لم تكن إلى غداء أو عشاء فهي في مصر والكويت والسعودية إلى شاي ، وهي في لبنان إلى كوكتيل ، ويعرفون أن تقبيل أيدي السيدات إذا كان مستحباً في باريس فهو كارثة في العالم العربي .

ضرورة التواصل بين العاملين

كان والدي – يرحمه الله – إذا طلب إلى أحد إبلاغ رسالة إلى آخر قال له « أفهمه ذلك وتأكد أنه فهم » وهو اتجاه صحيح فليس

من شأن الإبلاغ السليم أن ينتج بالضرورة فهماً سليماً .

إن ركن الأركان في الإدارة هو الوضوح ، والوضوح يقتضي أن تصل المعلومات أولاً فأولاً إلى المستويات الإدارية في اتجاهات ثلاثة :

* من أعلى إلى أدنى .
* ومن أدنى إلى أعلى .
* وفي اتجاه أفقي .

أما الاتصال من أعلى إلى أدنى فالمقصود به إعلام الواقفين في مواقع التنفيذ بالسياسات التي تقررت ، والبرامج والخطط التي وضعت ، والسلطات والمستويات الإدارية التي استحدثت . ولا بد أن تمر المعلومات في طريقها المرسوم من أعلى الهرم التنظيمي مارة بكل المستويات دون أن تتخطى أحداً في المستويات الوسطى أو الدنيا .

وأما الاتصال من أدنى إلى أعلى فالمقصود به هو البيانات الصاعدة التي مهمتها إبلاغ الرؤساء بما تم وما لم يتم من أعمال ، بالمشكلات التي ظهرت في التنفيذ ، بالانحرافات التي لم تكن في الحسبان ، وأخيراً بالاقتراحات التي يتقدم بها العاملون .

وأما التواصل الأفقي فهو ضروري ما دامت المنشأة تضم إدارة فنية ، وإدارة حسابية ، وإدارة قانونية ... الخ فلا بد أن يضرب الجميع على وتر واحد هو مصلحة المنشأة ولا يكون هذا إلا بالتواصل .

ويكفي للدلالة على فساد الاتصال الأفقي في العالم العربي ما نشاهده من تشريح في عواصمه ، فإن الشوارع ترصف دون التأكد من أن أسلاك الهاتف ومواسير المجاري وخطوط الكهرباء ليست

في حاجة إلى تغيير أو إصلاح . والنتيجة أن مصلحة الهاتف أو المجاري أو الكهرباء كلما أرادت إصلاحاً حفرت الشارع فاحتاجت مصلحة التنظيم إلى رصف من جديد .

وقد اشترى أحد الفلاحين في مصر قطعة أرض من مصلحة الأملاك ودفع ثمنها وبدأ في استغلالها فإذا برجال الري يحررون له مخالفة بعد سنتين لأنه ظهر أن هذه الأرض من المنافع العامة ، ولو أن مصلحة الأملاك كانت تعرف هذه الحقيقة لما أقدمت على بيع الأرض .

إن كل بلد عربي لا يمكن أن يحقق التنمية الاقتصادية والاجتماعية لنفسه من غير إدارة . فالإدارة هي التي تجمع وتنسق بين عوامل الإنتاج الثلاثة ، وهي الأرض ورأس المال والعمل لكي تصل بها إلى أقصى غلتها . فليس يكفي أن يكون من بين العرب أطباء متخصصون ، ومهندسون أكفاء ، وكميائيون متفوقون لكى يصلوا بهم إلى ما يريدون بل لا بد من الادارة لكى تجعل منهم فريقاً يحقق التقدم الذي ننشده قبل سنة ٢٠٠٠ .

الفصل السادس

عادات عربية ليست من الدين

لا بد من التفرقة بين المقدسات والعادات ، فالمقدسات تنحصر في الدفاع عن الدين والوطن ، والمقدسات هي التي تكون حضارتنا أما العادات فهي التي تتألف منها ثقافتنا ولذلك يجب أن نزيل من طريقها ما يقف حائلاً دون تطورها .

وقديماً غير أتاتورك الكتابة من العربية إلى اللاتينية ، والملابس من التركية إلى البنطلون والجاكتة ، دون أن يقول قائل إنه تنكر لوطنه . وإذا كانت تركيا لم تحقق في أعقاب ذلك ما يسوى في الحضارة بينها وبين البلاد الأوروبية فذلك لأن أتاتورك غير في السطح وأهمل الأعماق . استورد الشكل وأهمل الموضوع . ولو أنه بذل مثل هذا الجهد في توطيد التكنولوجيا لكان لتركيا اليوم شأن آخر .

أما العالم العربي فإن في كثير من عاداته ما ينافي الدين في حكمته كالاسراف في المآتم والمدافن . وتقتضينا الحقيقة أن نستثني السعودية من هذا النقد كما تقتضينا أن ننتقد زيادة النسل في مصر . إننا نعترف

بوجود الإسرائيليات في الأحاديث النبوية ثم نسكت عن المكذوب منها . وقد جاءت المدنية بوسائل جديدة للسفر فلم يتعرض أحـــد لبيان أثرها على رخصة الإفطار في رمضان والجمع في الصلوات ، وبقي ما كان صالحاً للجمال في الريف والصحراء مطبقاً على السيارات والقطارات والطائرات .

صحيح أن كثيرين من رجال الدين لا يتأخرون عن تقديم الفتوى لكل سائل في الصحف أو في غيرها ، ولكنني أدعوهم لتأصيل الموضوعات الدينية دون انتظار لسؤال يثور . والغريب أن السنيين والشيعيين – وكلاهما مسلمون – يكرهون بعضهم بعضاً ، ولا يكرهون غير المسلمين ، وهو اتجاه محمود نحو الأديان الأخرى ولكنه غير مفهوم نحو مذهب في نفس الدين . لقد شاهدت مرة وأنا صغير شافعياً يلتقي بمالكي في أحد المساجد فلما انصرف هذا ودعه الآخر بنظرة فيها اشمئزاز . وقيل إن الشيعي في العراق إذا سلّم على سني غسل يده بعد السلام فهل هذه الحزبية الدينية تتفق والثقافة العامة ، أو تتمشى مع قاعدة أن « من اجتهد وأخطأ فله أجر ، ومن اجتهد وأصاب فله أجران » ؟

الحق أن معظم رجال الدين أكثر انشغالاً بشؤون الآخرة منهم بشؤون الدنيا ، ولذلك يكثرون من الكلام في العبادات ولا يتحدثون إلا قليلاً في المعاملات . وليس لدينا أمل في ربط الدين بالثقافة إلا عن طريقهم .

إن الدين يتميز عن القانون الوضعي بأنه يرافق الانسان أيان يذهب ، فهو ليس في حاجة إلى شهود ولا بينات ما دام الضمير هو

الشاهد الذي لا يغفل ولا ينام . ولذلك أتطلع إلى رجال الدين كي يزيلوا الجفوة بين الدين والعلم فلا غنى لأحدهما عن الآخر ، ولا مبرر لأن يتصدى دينيّ كبير فيقطع بأن على جناح الذبابة دواء يشفي مما على جناحها الآخر ، أو أن يقول ثان أن الأرض مسطحة ، أو أن يفسر ثالث قول الله تعالى «وما فرطنا في الكتاب من شيء» بأن الاسراء هو الصاروخ الذي اكتشفه العلماء في أواخر القرن العشرين .

إن الدين اتجاهات أخلاقية للوجدان والروح . فلا محل لإقحامه في غير العبادات والمعاملات ، أما العلم والتكنولوجيا فهما وسائل للمادة . وعليهما أن يسيرا في طريقهما دون تعرض للدين . هكذا يحيا العربي في توافق مع نفسه ، فلا يعيش في الخزعبلات كالبدائيين ولا يترك رجال العلم يضلون فيتنكرون للدين .

التظاهر بمناسبة الموت

كلما مررت أمام جامع عمر مكرم بالقاهرة – في الليل أو في النهار – وجدت عدداً من العمال في شغل شاغل : بعضهم يدق عروقاً خشبية ويلف حولها قماشاً مزركشاً لينشئ سرادقاً ، والبعض الأخر يقتلع عروقاً أخرى ليهدم سرادقاً آخر . الأولون يستعدون لاستقبال المعزين والآخرون قد فرغوا من توديعهم .

والإنشاء والهدم يستمران يوماً بعد يوم كأنهما غاية في ذاتها . والفراشون متعددون ومتنافسون ، فهذا يأتي بأخشابه وأقمشته المزركشة إلى المسجد الكبير أو إلى ما جاوره من أماكن ، وذاك ينقل أخشابه وأقمشته من نفس الأمكنة ليفسح المجال للسرادق الجديد . وفيما

بين ذلك تروح العربات وتجيء لتؤدي مهمتها في نقل المهمات .

ألا يمكن أن تبنى قاعات دائمة توفر هذا العبث في الوقت والعمل والمال ؟ أم المقصود أن يكون السرادق من قماش مزركش ليخفف بألوانه الزاهية عن أهل الفقيد في المناسبة الحزينة ؟

ولو سلمنا أن الزركشة ضرورية فهلا يمكن إقامة سرادق مزركش ، ثم نبقّي عليه أياماً بل أسابيع ليخدم فقيداً بعد فقيد ؟

والقراء الذين وصلت أتعاب بعضهم إلى ألف جنيه في الليلة الواحدة ، ألا يمكن أن نخفف عن المصابين باذاعة أشرطة معبأة بأصواتهم يتقاضون منها حق الأداء العلني ؟

وهذه الميكروفونات التي يغطي بعضها على بعض فيتألف من هذا التشابك ضجة لا هي واضحة ولا مسموعة ، هل فيها ما يتفق مع كرامة القرآن ؟

إنني أرى أكثر المعزين ينصرفون عنها إلى ما هم فيه من حديث ، وما في أيديهم من فناجين القهوة ، وأرى البعض يقوم من مكانه ليهنئ آخر بالترقية . ويسأل عن الصحة وعن نتائج الأبناء في الامتحان ثم يتدرج إلى الكلام في السياسة والاقتصاد : كل ذلك في صوت خفيض – والحق يقال – حتى لا تتألف منه ضجة أخرى . أفـــلا يمكن الاستغناء عن هذه الميكروفونات بل عن المآتم كلها ؟

إن الجنازات لا تنقطع من جامع عمر مكرم . والناس يتدافعون فيها بمقدار ما للفقيد من مكانة ، فإن كانت عادية سارت الجنازة إلى مسجد قريب ، وإن كانت كبيرة استطالت الجنازة واخترقت ميدان التحرير

إلى شارع سليمان باشا حتى جامع جركس . وفي هذا ما يوقف حركة المرور ويعطل مصالح الناس .

وقد رأيت الأمر مختلفاً في بلد اسلامي آخر هو تونس . فهم هناك ينقلون الجثة في سيارات الموتى لتجري بها الى مدخل المدافن في أطراف المدينة ، وهناك يوجد طريق مرصوف تسير فيه الجنازة حتى قبر الفقيد . وهي تتألف ممن لحقوا السيارة بسياراتهم الخاصة أو في حافلات كبيرة .

ورأيتهم في السعودية يقتصرون على تشييع الجنازة دون بكاء أو عويل ، ولا يسرفون في نوع الكفن ولا يغطونه باللفافات ، ثم لا يقيمون للفقيد مأتماً ولا قبراً مهما علا مقامه ، ولم يكن الملك فيصل بمقامه وظروف اغتياله استثناء من هذا التقليد .

أما عندنا فلا يقتصر الأمر على تشييع الجنازة بالنهار ، وإنما يمتد إلى المأتم في الليل ، ثم إلى الخميس الكبير أو الأربعين ، ثم إلى العيد ، ثم إلى مرور سنة ، وتتكرر الذكرى عاماً بعد عام حتى ينتقل من الأسرة فقيد جديد ينسيها فقيدها الأول . إنها إجراءات ورثها المصريون عن الفراعنة ، فهل نحن لا نحمي تراث الفراعنة إلا في الأحزان ؟

مشاكل الناس اليومية

وبمناسبة الكلام عن جامع عمر مكرم لماذا تكون المساجد دائماً من طابق واحد وهي غالباً في أماكن مرموقة ؟ لماذا لا يكون الطابق الأرضي للصلاة ، ولمناسبات الوفاة والزواج ، ويكون الطابق الأول

لعيادة خارجية والطابق الثاني لمدرسة تعلّم القرآن واللغة والحساب ؟

ثم لماذا هذه المآذن الشاهقة التي تكلف ذهباً ؟ لقد كانت ضرورية حين كان المؤذن يصعد إلى أعلاها لينبه الناس إلى أن وقت الصلاة قد حان . أما اليوم فهو يرسل صوته من الطابق الأرضي فينطلق من الميكروفون بفضل الكهرباء . فإن كان لا بد من المحافظة على الشكل والتقاليد فلتكن المئذنة بارتفاع طابقين على الأكثر لتدل على أن هنا مسجداً .

كلما صليت الجمعه في مسجد سمعت من الخطيب نفس الكلام الذي كنت أسمعه وأنا صغير .. كلام في حكمة الصوم وفائدة الصلاة وأصول الحج ... كأن الاسلام عبادات فقط وليس معاملات أيضاً .

إن الخطيب يقرأ في كتاب متهالك مؤلف منذ قرن من الزمان ، وهو يعيد قراءته كلما انتهى منه وكأن الأرض لا تدور ، وكأن ظروف الناس لا تتغير . إن الخطيب لا علاقة له بتنظيم الأسرة ومشاكل الناس اليومية وعلاقتهم بالدولة وعلاقة بعضهم ببعض ، ولذلك لا يتحدث عن العناية بالزراعة ، ولا يتكلم في مكافحة الحشرات الزراعية عن نفسه وعن جيرانه ، ولا يقول إن المتهرب من الضريبة سارق للدولة ، وأن الذي يقبض مرتبه دون أن يؤدي عمله سارق للوقت ، وأن بائع الطعام الفاسد قاتل ، وأن الذي يتبرع بإنشاء مدرسة أو مستشفى كمن ينشئ مسجداً كل منهم يعمل لخير البشرية من أحد جوانبه ، وأن النظافة من الإيمان فمن يلقي بالقمامة في الشارع يخالف ربه ، وأن المسكرات إذا كانت محرمة فإن المخدرات أكثر ضرراً فهي أكثر تحريماً .

لقد سمعت منذ شهور خطيباً يصنف أعمار الناس في خطبة الجمعة فيقول « ويا ابن الستين قد أخلفتك العادة . لقد بدأت زيادتك في النقص ونقصك في الزيادة » فلم استفد شيئاً من هذا السجع وان كنت قد خرجت آسفاً على نفسي ، فإذا كان هذا حال ابن الستين فكيف حال مثلي ممن جاوز السبعين ؟

وسمعت يوماً أحد الخطباء في مسجد رأس التين بالإسكندرية يعد المتقين بقصر في الجنة فيه ألف غرفة ، في كل غرفة ألف سرير ، وعلى كل سرير ألف جارية ، فهنأت نفسي بأنني أستحق الجنة لأنني لا أزال حريصاً على صلاتي بالرغم من هذا الكلام .

إن المساجد تأتي في مقدمة وسائل الإعلام لأنها تتجه إلى قلوب الناس وعقولهم . ولو احصينا المترددين عليها لوجدناهم يزيدون على عدد قراء الصحف ومشاهدي التليفزيون . ولذلك فإنني أطالب المسلمين بمزيد من العنايه بالمساجد ، وبمزيد من التدقيق في اختيار الخطباء ، وبمزيد من توجيههم إلى ما يتصل بحياة الناس .

أما رجال الوعظ والإرشاد فهم يعتقدون أن مهمتهم مقصورة على التردد على سرادقات العزاء وأماكن العبادة . ولذلك لا يقبلون الدعوة لإلقاء خطاب في اجتماع لرجال الأعمال أو رجال العلم . وفي رأيي أن الدين لا يصح أن يعزل نفسه عن الدنيا ، بل لا بد أن يقتحم بنوره ظلمات الكون .

إن الإسلام يرفع ألويته اليوم في أفريقيا وآسيا ، وأنا أرجو أن أرى ألويته فوق أوروبا وأمريكا .

حفظ القرآن

ما زلت أذكر حين كنت استاذاً غير متفرغ في كلية التجارة - جامعة الأزهر أن دخول الكلية لحملة الثانوية العامة كان رهناً بحفظ المتقدم للقرآن كله وكان يعقد للمتقدمين امتحان في ذلك يندب له أحد شيوخ الأزهر . ومن عجب أن الشيخ كان لا يحفظ القرآن فكان يستعين بالمصحف أثناء الامتحان ! قلت في نفسي « حبذا لو كان الامتحان في تفسير القرآن بدل أن يكون في حفظه ، فالحفظ يجعل من الحافظ مجرد اسطوانة أو « كاسيت » والعلم هيأ لنا هذه « الكاسيتات » فلماذا لا نستخدمها لنخفف على الناس مؤونة الحفظ ونستخدم عقولهم في فهم معاني القرآن ؟ .

رؤية القمر

وبالمثل لا يزال رجال الدين يصرون على ألا يعترفوا ببزوغ القمر إلا إذا رآه اثنان من الشهود وتكون النتيجة أن يبدأ رمضان في مصر في يوم مختلف عنه في السعودية وفي يوم مختلف عن الاثنين في تونس وهكذا . أليس من الممكن الاستعانة بالرادار أو بغيره من الأجهزة الحديثة لرؤية القمر وبذلك يتفق المسلمون على بدء السنة الهجرية وعيد الهجرة وعيد الأضحى إلى غير ذلك من المناسبات الدينية ؟

كلمة لا بد منها

إنني أتحدث في غير اختصاصي . وقد يرى رجال الدين في ذلك تطفلاً لا يليق ولكن قصدي من التعرض لهذه الموضوعات هو حضهم

على أن يتصدوا لها بالبحث والتحليل ما دامت ليست من الغيبيات التي لا مناص من التسليم بها وإنما هي من العقلانيات التي يجوز التغيير فيها .

الفصل السابع

الحضارة والتوعية الاقتصادية والاجتماعية

التوعية هي تعليم الجماهير وتربيتها . هي تعليم لأنها توسع مداركهم وتزيد انفتاحهم على العالم . وهي تربية لأن هدفها في النهاية هو أن تغير في سلوكهم الإنساني .

وكما نقول إن الدرس الملقن ليس مربياً لأنه لا يؤثر في سلوك تلاميذه ولا يتفاعل مع شخصياتهم ، فإننا نقول إن موجه الدعوة لا بد أن يتفاعل مع جمهوره ليؤثر فيهم ، فإذا لم يحقق ذلك فهو ليس مرشداً ولا داعياً على الإطلاق . إن كل الفرق بين المربي والمرشد هو أن الأول يربي الأفراد والثاني يربي الجماعات ، ولكن الفكرة واحدة في الحالتين .

طبقات النفس

إن في نفوس الجماهير ثلاث طبقات معروفة : أولاها على السطح وهي العقل الواعي ، وثانيتها في الوسط وهي العقل الباطن ، وثالثتها في

الأعماق وهي اللاشعور . والعقل الواعي يتلقى الرسالة الإعلامية بالسمع والبصر فيعمل فيها منطقه ثم يقبلها أو يرفضها . أما العقل الباطن فإن القراءة أو السمع أو المشاهدة تؤثر فيه بالإيحاء Suggestion فتوقظ فيه ما هو مستكن وتحركه فتغير في الشخص عادات الشراء والبيع والتدخين واستخدام خط معين للطيران والانحياز لمبدأ سياسي .. إلى غير ذلك .

أما اللاشعور فهو بعيد عن مراكز الحس . إنه مستودع الغريزة والدين والوطنية . إنه النار تحت الرماد . هو الذي يجعلنا نحب ونكره ، ثم يجيء عقلنا الواعي فيبرر ما أحببناه أو كرهناه .

الاتجاهات الاقتصادية

كان الاتجاه الاقتصادي economic approach ينطلق من فكرة المنفعة وحدها فيسير وفقاً للفروض الآتية :

* إن الشراء يجب أن يحقق للنقد أقصى منفعة ممكنة .
* وان المستهلك على علم بالسلع البديلة .
* فقرار الشراء يتوقف على مدى التفاعل بين القوة الشرائية للمستهلك وسعر السلعة المعروضة .

ثم جاء المذهب الاقتصادي النفسي Psychoeconomic فرفض أن يكون للمستهلك دافع واحد للشراء هو المنفعة ، ووضع بدلاً منه مبدأ تعدد الدوافع بل وتعارضها . وبناء على ذلك أصبح البحث الميداني Market survey ضرورياً للوقوف على اتجاهات المشترين في المستقبل .

ثم جاء المذهب الاقتصادي الاجتماعي Socio-economic فقرر

أن البناء الاجتماعي هو الذي يحدد أنماط الاستهلاك . إن قادة المجتمع في كل ميدان هم الذين يغرون المستهلكين بالتقليد فيثيرون تطلعاتهم إلى مستوى أعلى من المعيشة ، وإلى ما يتطلبه هذا المستوى من الإقبال على السلع ذات السمعة الأحسن ، ولذلك يبني قرار الشراء على التفاعل بين عاملين هما رغبة الفرد في الادخار ، ودرجة تعرضه للأفضل من السلع . وهناك يكون للمستوى الثقافي وتمكن العادات أثرهما في نتيجة التفاعل .

أثر الإعلان في تكوين اتجاهاتنا

لما كان انتاج السلع لاحقاً للطلب عليها كانت تنتج وفقاً لرغبات المستهلكين ، فلم تكن هناك حاجة إلى إعلان . ولكن الثورة الصناعية جاءت فقلبت هذا الوضع ، وجعلت الإنتاج سابقاً على الإستهلاك ، ثم زادت من عدد السلع النمطية فاشتد التنافس بينها في جذب انتباه المستهلكين . ولما تعددت الأصناف والمستويات أصبحت كل سلعة في حاجة إلى تسمية نفسها بعلامة تجارية خاصة ، وإلى تقديم نفسها إلى المستهلك بهذا الاسم عن طريق الإعلان .

واتخذ الإعلان طريقه بالصحافة والإذاعة والتليفزيون وغيرها فأصبح يدخل على الناس مخادعهم حين يقرءون صحف الصباح ، ويزاملهم في الطرقات حين يسيرون إلى السوق فيذكرهم بجمله وصوره على الملصقات ، حتى إذا وصلوا إلى المتاجر استقبلهم باللافتات عند المداخل وقبل اتخاذ القرار . فإذا عادوا في المساء إلى بيوتهم خاطبهم من جديد عن طريق الإذاعة والتليفزيون .

والإعلان حين يقدم السلع الاستهلاكية لا يتجه إلى العقل بقدر ما يتجه إلى النوازع ، ولا يستخدم المنطق بقدر ما يتوسل بالإيحاء ، والإيحاء يعتمد على ربط السلعة بالجمال والسعادة والأمل وبحب البقاء وحب التملك والأمومة والاستعلاء ، مما يخلق جواً محبوباً يرتبط بالسلعة فيوجد عنها صورة ذهنية تدفع المستهلك إلى شرائها .

ولكن ما دخل هذا في حضارتنا ؟

لقد أشرت يوماً على مصنع للصابون النابلسي أن يجعل أطراف القطع مستديرة بعد أن كانت مدببة حتى لا تؤذي الأيدي عند الغسيل فنقصت المبيعات نقصاً مفاجئاً . وتبين بعد الاستقصاء أن المستهلكين رأوا في تدوير الأطراف انتقاصاً من حجم الصابون مع أنه كان يباع بالوزن .

وكان في حي قريب من الأزهر محل صغير للأحذية يتردد عليه شيوخ الأزهر فيتربعون على حشية من القطن ويقيسون المراكيب . وقد بدا لي أن أرفع المستوى فأشرت على صاحب المحل أن يضيئه بالنيون ويزوده بكنبة وحامل خشبي يستقبل أقدام المشترين فإذا الشيوخ يفرون من المحل ! وعاد الرجل إلى حشيته الأولى .

إن المنطق من صنع صاحبه ، وهو يتوقف على مدى تفكيره وقوة تعبيره أما الواقع فهو صادق أبداً لأنه الحقيقة نفسها ، والواقع إذا ترجم في ظروف الشخص وأهدافه أصبح منطقياً كذلك .

وقد سئل المستهلكون في بلد عربي عن سبب تفضيلهم معجون أسنان معين فقرر ٦٠ ٪ منهم أنه مطهرّ . وهو سبب ظاهر البطلان

لأنهم لا يستطيعون الحكم على مدى تطهيره لأسنانهم . لقد وضع الإعلان في أفواههم هذا السبب فرددوه .

ودخل أستاذ متخصص في الإعلان على مدير عربي فوجده يدخن مع عدد من زملائه سيجارة محلية . وقدم له المدير علبة سجائره فازورّ عنها وقدم له سيجارة من علبته الأمريكية – وكانت نادرة في السوق – فأطفأ المجتمعون سجائرهم التي في أيديهم وأقبلوا على السيجارة الجديدة واستمتعوا بها كما لم يستمتعوا بسيجارة أخرى . وقبل أن ينتهوا منها فاجأهم الأستاذ بقوله :

« ما رأيكم في أن السيجارة التي في أيديكم الآن هي نفس السيجارة التي القيتموها ؟ » ونظر المدخنون فيما هو مكتوب عليها فوجدوا الاسم نفسه ! لقد كان الفرق الوحيد أن السيجارة المحلية قدمت لهم في علبة أمريكية ! ومعنى هذا أنهم كانوا يدخنون صورة ذهنية انطبعت في نفوسهم بفعل الإعلان .

نقطة ماء تبلي الحجر

لا يصح أن نتجاهل فعل إعلانات الغرب في العالم العربي فالاعلان يعتمد على التكرار في تكوين الرواسب النفسية . إن الناس أعداء ما جهلوا ولكن الإعلان يبلي بالتكرار مقاومتهم للسلعة شيئاً فشيئاً كما تبلي نقطة الماء قطعة الحجر إذا نزلت في نفس المكان باستمرار وهكذا اعتنق العرب شرب الكوكاكولا وتدخين السجاير وتنظيف الأسنان بالفرشاة والمعجون وركوب السيارات وتجميل وجوه النساء بالكريم وأحمر الشفاه والخدود ... كما اتجهوا إلى استخدام الثلاجات

والغسالات وأجهزة التكييف في المنازل ولا شك أن لهذا النمط في العيش تأثيره في الحضارة .

وأثر الإعلان ليس مقصوراً على هذه السلع الاستهلاكية . بل يتعداها إلى السلع الإنتاجية Capital goods التي يتولى الإعلان إقناع المشتري بجدواها واعتدال ثمنها وطريقة تشغيلها وإصلاحها ونفقات صيانتها فتنتشر الميكنة بين العرب وتؤدي الصناعة دورها في تثقيف العقول وتثبيت دعائم المدنية .

التوعية الاجتماعية

في سنة ١٩٦٦ أجرى بحث ميداني في جمهورية مصر العربية عن الصحف ظهر فيه أن أكثر الأبواب قراءة هي الخفيفة . وقد تكون هذه الأبواب حداً أدنى لأن كثيرين يحجمون عن المصارحة ، كما أن نسبة من ذكروا أنهم يستمعون للقرآن أو يقتنون دوائر المعارف تعتبر حداً أقصى لأن من بينهم مدعين يقررون هذا تقرباً أو استعلاء أو إيثاراً للأمان .

وفي سنة ١٩٦٩ قام الأستاذان بدراوي فهمي وعبد العزيز عبد الرحمن ببحث في قرية المزاريق عن أفضل وسائل التنمية الثقافية للمجتمع الريفي فأسفر البحث عما يلي :

١ – إن بالقرية وعياً عاماً بالنواحي الصحية يتمثل في استشارة الطبيب عند المرض ومعرفة أن مياه الترع والقنوات مصدر للعدوى بالبلهارسيا .

٢ – إن هناك اجماعاً على أن المرأة المتعلمة خير من غير المتعلمة .

٣ – كان الاتجاه القدري واضحاً بين أفراد العينة وكانت أهم صفات الزوجة بالترتيب هي التجويد في شؤون المنزل ، الطاعة ، ثم التدين .

٤ – قال نصف أفراد العينة ان تحديد النسل معارض للدين .

٥ – كان تردد أفراد العينة على القسم البيطري لعلاج حيواناتهم يزيد على ترددهم على القسم الطبي لعلاج أنفسهم !

ومنذ بضع سنوات اشترك مؤلف هذا الكتاب في مناقشة رسالة دكتوراه تقدم بها الأستاذ يوسف الحاروني عنوانها « دور وسائل الاعلام في خلق النظرة العلمية بالجمهورية العربية المتحدة » وهو يقصد بالنظرة العلمية الاتجاه العقلاني نحو البيئة . وقد قسم الدارس بحثه إلى ثلاثة قطاعات هي :

أولاً – تحرير المواطن من المعتقدات الخرافية ومن الغيبية القدرية ومن تحكم العرف والتقاليد ومن نزعات التقديس .

ثانياً – انفتاحه نحو النور والمعرفة .

ثالثاً – ميله إلى غرس النواحي الإيجابية المنشئة للنظرة العلمية كاعتناق قانون العلة والمعلول وتمحيص الأدلة .

وقد أجرى البحث الميداني في قرية الصوامعة مركز أخميم بمحافظة سوهاج وقرية الروضة مركز فارسكور بمحافظة دمياط . ذلك ان القرية الأولى تمثل القرى المتأخرة : فهي في حضن الجبل ، بعيدة عن الطريق الزراعي ، وأهلها فقراء ومستوى الأمية فيها مرتفع . أما القرية الثانية فهي قرية متقدمة مبانيها بالآجر ، وفيها ميكانيكي وجمعية تعاونية ومياه جارية وكهرباء .

وقد أجرى الباحث استقصاءه في هاتين القريتين ليرى أثر الاعلام في توعية الريفيين وأجراه أيضاً بين العمال في شركة اسكو وشركة النصر للكوك والكيماويات ، كما أجراه بين الطلاب في الدراسات العليا في مجال الخدمة الاجتماعية والصحافة .

وقد أراد الباحث أن يعرف مدى نجاح وسائل الإعلام في التوعية فاختار لذلك ميادين ثلاثة :

أولها ـ الإيمان بالخزعبلات

وضع الباحث الأقوال الآتية باللغة العامية وطلب رأي المبحوثين فيها :

١ – في يوم الجمعة ساعة نحس .
٢ – الطفل يولد ومعه رزقه .
٣ – بعض المشاكل الزوجية سببها السحر .
٤ – الأحجبة والبخور تمنع الضرر والحسد .
٥ – اصرف ما في الجيب يأتك ما في الغيب .
٦ – القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود .
٧ – النار لا تصيب مؤمناً .
٨ – قيراط بخت خير من فدان شطارة

وثانيها ـ النظرة إلى المرأة

كانت الأسئلة عن المرأة كما يلي :

١ – هل توافق على تعليم البنت ؟

٢ – أيهما أفضل : الزوجة التي تلزم البيت ، أم التي تعمل ؟
٣ – ما هي في نظرك أهم الشروط المطلوبة في الزوجة بالترتيب ؟
٤ – ما رأيك في قيام بعض الأزواج بالمساعدة في الأعمال المنزلية ؟
٥ – لو كان لك بنت أو أخت قالت لك إنها تحب واحداً وانهما اتفقا على الزواج – فماذا يكون رد الفعل عندك ؟

وثالثها ـ النظرة الموضوعية

١ – ما رأيك في تحديد النسل ؟
٢ – أنت تبحث عن مسكن . وقد وجدت مكاناً مناسباً ولكن الناس يقولون إن فيه عفريتاً فهل تسكنه ؟
٣ – بقالان متجاوران في شارع واحد : أحدهما ناجح والآخر فاشل فهل تعتقد أن هناك أسباباً لذلك أو أن الأمر مجرد حظ ؟
٤ – لو حضرت مناقشة بين مسلم ومسيحي حول تعدد الزوجات فهل يهمك أن تسمع رأي من ليس من دينك ؟

نتيجة الاستقصاء

لقد جاءت النتيجة مخيبة لكل رجاء سواء في الصوامعة أو في الروضة أو بين العمال والطلاب . فقد وافقت الأغلبية ممن يسمعون وممن لا يسمعون ، ممن يقرأون وممن لا يقرأون على صحة الخزعبلات .

وقد ثبت أن وسائل الاعلام لم تؤثر في النظرة إلى المرأة ولا في النظرة الموضوعية بل بقيت القيم الاجتماعية هي الأساس .

يقول الدكتور الحاروني : لقد ثبت أن وسائل الاعلام تدعم

أكثر مما تغير . فلو جاء الأعلام في نفس الخط الذي يسير فيه السلوك فإنه يدعم هذا السلوك . أما إذا جاء مغايراً له فهو أضعف من أن يؤثر فيه .

مناقشة هذه النتيجة

هنا يثور سؤال : إذا صح ما يقوله الدكتور الحاروني فكيف انتشر الإسلام إذن ؟ إن الله تعالى يقول «واذن في الناس بالحج» أي أعلن لهم عنه . ومعنى هذا أن الإعلام كان من دعامات الإسلام . وليس من السهل أن نتصور أن الإسلام قد وصل إلى روسيا واسبانيا بغير إعلام .

ثم يثور سؤال آخر : كيف استفادت اسرائيل من وسائل الإعلام المتاحة لها فأثرت على الرأي العام العالمي تجاه العرب ؟ وكيف أدرك العرب أخيراً فعل الإعلام فأحسنوا استخدامه وظفروا بعطف الرأي العام على قضيتهم ؟

ونحن نعرف تمسك الكاثوليك في ايطاليا بتحريم الطلاق برغم ما يرونه كل يوم من انفصال الأزواج عن أزواجهم ليعيشوا مع أخريات ، ومع ذلك وبالرغم من احتجاج البابا فقد تمكنت وسائل الإعلام أخيراً من التأثير في اتجاه أعضاء البرلمان وصدر القرار بإباحة مبدأ الطلاق .

وإذا كان الأمريكان الكاثوليك قد ملكوا مع غيرهم ناحية العلم ووصلوا إلى القمر ، فلا يزال منهم من يرى أن تحديد النسل حرام حتى أن لديه من الأبناء عشرة أو أكثر ولكن وسائل الإعلام نفذت

أخيراً إلى نفوسهم فجعلتهم يتحكمون في النسل .

إن الوصول إلى المنطقة الثالثة في نفس الإنسان – منطقة اللاشعور أمر بالغ الصعوبة ولكنه غير مستحيل .

وإذا كانت وسائل الاعلام وحدها لا تكفي للتوعية فلا بد من القدوة الحسنة . فالله سبحانه لم يكتفِ بالتوراة والإنجيل والقرآن في التبشير باليهودية والمسيحية والإسلام ، وإنما أرسل مع الكتب السماوية رسله موسى وعيسى ومحمداً .

الخلاصة أننا نستطيع بالجهود المكثفة في التوعية من اليوم إلى سنة ٢٠٠٠ أن نقرب بين الدول العربية في مستوى الحضارة فينشأ بينها اتحاد عربي ناجح . أما الوحدة العربية فهي حلم يمكن أن يتحقق بعد سنوات من الاتحاد . فالوحدة نتيجة للتقارب العربي وليست مقدمة له . إنها ليست ثورة عربية تفرضها قرارات يصدرها الحكام والبرلمانات وإنما هي مناخ يفرضه الواقع على الشعوب العربية في الوقت المناسب .

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥٠١١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN



الفكر بعدٌ عن التفكير في كل شيء .
نعليم سياسة ، وإدارة الأعمال سياسة
وهكذا .. ولكن السياسة بمعناها المعروف هي الانحياز لوطن ضد آخر ، أو لحزب بالذات ، أو لنظام معين كالشيوعية ، أو الاشتراكية أو الرأسمالية .

السياسة بمعناها هذا هي التي قال عنها الشيخ محمد عبده «أنا أكره السياسة ، وأكره ساس ويسوس» . ولعلي أضيف إلى ما قال «بل أكره السوس» . هذه السياسة هي التي لا ذكر لها في هذا الكتاب ، فقد حاولت أن أسمو فيه على الخلافات التي تنخز كيان العالم العربي في الوقت الحاضر ، وأن أتحدث عن مستقبل العروبة ككل في سنة ٢٠٠٠ . أتحدث عن ثقافتها وحضارتها ، عن مفهومها الديني وحياتها الاجتماعية وإدارة الأعمال في مؤسساتها ...

إن هذا الكتاب كلمات إلى العقل لا إلى العاطفة . وهو خلاصات مركزة تنتزع نداءها من الواقع الذي نعيشه ، لا من الآمال التي نحلم بها . إنه يشخص الأثقال التي في أقدامنا ونسميها بالخطأ تقاليد ، ويستحلف العروبة بمقدساتها أن تتخلص منها قبل نهاية القرن الحالي .